الحياة الأجتماعية فى بغداد فى العصر العباسى الأول

١- عناصر السكان وأثرها فى الحياة الاجتماعية.

(أ) العرب والفرس والترك.

(ب) أهل الذمة.

(جـ) الرقيق.

٢- الحياة العامة فى بغداد

(أ) القصور والدور فى بغداد فى العصر العباسى الأول.

(ب) المواكب والأعياد والمواسم.

(جـ) الموسيقى والغناء وأنواع التسلية.

(د) المرأة فى بغداد وأثرها فى المجتمع.

(هـ) الأخلاق والعادات.

obeikandl.com

obeikandl.com

ويقول أستاذنا الجليل الدكتور عصام عبد الرءوف فى كتابه الحواضر الإسلامية عن:

الحياة الاجتماعية فى بغداد فى العصر العباسى الأول

١- عناصر السكان وأثرها فى الحياة الأجتماعية:

(أ) العرب والفرس والترك.

العرب:

أنقسم شعب بغداد إلى عناصر رئيسية هى العرب والفرس والترك وينقسم العرب إلي قيسيه ويمينة، وأنقسم السكان عموماً إلى مسلمين وأهل ذمة، والمسلمون انقسموا إلى سنة وشيعة.

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، وكان من الطبيعى أن ينالوا حظوة فى دولة بنى العباس، وفعلاً اعتمد عليهم العباسيون فى تدبير كثير من أمور دولتهم، ولم يكن الحال كذلك فى العهد الأموى، إذا اعتمد الأمويون على العرب اعتماداً كليًا فى تدبير ملكهم.

على كل حال ازداد نفوذ الفرس فى بغداد على نفوذ العرب فى بضع سنين من الحكم العباسى فى العصر الأول، وليس فى كل سنى هذا الحكم، ذلك أن الخلفاء العباسيين لا يمكنهم مجال من الأحوال أن يتجاهلو أصلهم العربى، فهم عرب هاشميون يعتزون بعروبتهم ويفخرون بها، وحتى الفترات التى طغى فيها نفوذ الفرس على نفوذ العرب فلاحظ أن الخلفاء الذين مكنهم الفرس من السلطة والسلطان هم أنفسهم الذين يقلبون عليهم ظهر المحن، وويتخلصون منهم، كما تخلص المنصور من أبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى، والمهدى من وزير يعقوب بن داود، والرشيد من البرامكة، والمأمون من الفضل بن سهل.

ويذكر الجاحظ أن دولة بنى العباس أعجمية خراسانية، ويردد بعض المؤرخين أن العرب ذلوا وضعف شأنهم فى العصر العباسى الأول فالمسعودى[١] والسيوطى[٢] يرويان أن المنصور أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه، وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب، فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده سنه، فسقطت وبادت العرب، وزال بأسها، وذهبت مراتبها. ولا يمكن قبول هذه الرواية لأن العباسيين اعتمدوا على بعض رجال من العرب فى إدارة أمور دولتهم، ووقف بنو جلدتهم من العرب إلى جانبهم فى الشدائد، فحينما ثار الراوندية الفرس على المنصور، وكادوا أن يفتكوا به لم ينقذه إلا رجل من سادات العرب هو معن بن زائدة الشيبانى، لذلك كافأه المنصور وأسند إليه ولاية اليمن[٣]، وأسند العباسيون بعض مناصب الدولة الكبيرة لرجال من العرب حتى لم يخل عصر خليفة من خلفاء العصر العباسى الأول من عرب يتقلدون فى بغداد مناصب الوزارة والحجابة والكتابة والقضاء، وفى أشد فترات ازدياد النفوذ الفارسى.

فحينما سيطر البرامكة على أمور الدولة فى عهد الرشيد كان الفضل بن الربيع ـ وهو عربى ـ يتقلد منصباً كبيراً، ويستشيره الرشيد، ويأنس به، وولى الرشيد أبا يوسف منصب قاضى القضاة فى مملكته كلها، وهو أول من شغل هذا المنصب فى الإسلام، وكان له ابن يسمى يوسف ولى القضاء فى حياة أبيه[٤] وظل يشغله حتى سنة ١٩٢هـ. ومن أشهر رجالات الدولة العباسية المسيب بن زهير بن عمر أبو مسلم الضبى، ولى شرطة بغداد أيام المنصور حتى عهد الرشيد فى سنة ١٧٥هـ[٥].

(١) مروج الذهب جـ٢ ص٢٢٣.
(٢) تاريخ الخلفاء ص١٠٥.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٤٣.
(٤) ابن النديم: الفهرست ص٢٨٦.
(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص١٣٤.

لذلك نرى إنه لا صحة لما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن الخلفاء تجاهلوا العرب. واعتمدوا على الفرس اعتمادًا كاملاً، بل كان الخلفاء العباسيون يحرصون على رفع منزلة العرب، ويأنفون من إذلالهم، فيروى الطبرى[١] أن المنصور رأى خادماً له من أصل عربى سبى من اليمن، وبيع إلى بعض بنى أمية ثم إلى المنصور فاعتقه المنصور وقال: لا يدخل قصرى عربى يخدم جرمى، وأقدم على الهادى شهود على رجل أنه شتم قرشا، فجلس الهادى مجلساً فيه فقهاء أهل زمانه، ومن كان بالحضرة على بابه وأحضر الرجل، وأحضر الشهود، وأقروا بما سمعوا عن الرجل فقال الهادى: إنى سمعت أبى المهدى يحدث عن أبيه المنصور عن أبيه على بن عبد الله بن عباس قال: من أهان قريشاً أهانه الله. وعاقبه الهادى أشد عقاب[٢]. وحتى الخليفة المأمون الذى تأثر كثيراً بالفرس لما اعترضه رجل من العرب وقال له: يا أمير المؤمنين أنظر العرب كما نظرت لأهل خراسان قال المأمون: والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد[٣]. وحتى الفرس على الرغم مما بلغوه من حظوة فى بعض فترات الحكم العباسى ظلوا يعتقدون أن العنصر العربى أفضل منهم. بدليل أنهم احتاجوا فى كثير من الأحيان إلى الانتماء إلى العرب بالولاء حتى أصحاب المكانة الكبيرة منهم، فأبو مسلم الخراسانى يزعم أنه من أصل عربى حتى يحظى بتقدير الناس وتأييدهم، فادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس[٤] وحمزة بن ميمون ـ أحد المقربين إلى المهدى ـ يغضب ويعاتب الخليفة حينما قدمه إلى أحد جلسائه القرشيين على أنه مولى[٥]. وإسحاق الموصلى ذهب إلى خازم بن خزيمة ـ وهو عربى ـ وطلب منه أن يكون مولى له، فيقبل ذلك منه[٦]

ومهما يكن من أمر فقد ظهر فى بغداد منذ نشأتها عنصران رئيسيان من سكانها

(١) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨هـ.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص١٦٩.
(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨هـ.
(٤) المصدر السابق حوادث سنة ١٣٧هـ.
(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٤٢.
(٦) الأصفهانى: الأغانى جـ٥ ص٢٦٩ - ٢٧٠.

يتناقسان حول الأستئثار بالسلطة والنفوذ فى حاضرة الخلافة، وكان لابد للخلفاء من حفظ التوازن بين الفريقين حتى لا يطغى فريق على فريق. ونلاحظ فى دراستنا لهذا الموضوع أن الخلفاء استعانوا بالفرس كما أستعانوا بالعرب، وحينما طغى نفوذ الفرس، نكلوا بهم وأبعدوهم، واستعانوا بالعرب، ومكنوا لهم، وأدى ذلك إلى الصراع مرير بين العنصرين استمر حتى خلافة المعتصم.

حرص الخلفية المنصور على عدم التمكين لأحد العنصرين ـ العرب والفرس ـ من ازدياد نفوذه على حساب العنصر الآخر، فكان للخليفة قواد وولاة من العرب، وقواد وولاة من الفرس، وكون جيشه من مضر واليمن وربيعة والخراسانية[1]، وكما استوزر المنصور أبا يعقوب المورياني ـ وهو فارسى ـ فقد استوزر الربيع بن يونس ـ العربى الأصل ـ وكان جليلاً منفذاً للأمور فصيحاً حازماً، أصطحب المنصور فى رحلته الأخيرة إلى مكة المكرمة وأوصاه المنصور قبل موته. وأخذ البيعة لخليفته المهدى، ولعيسى بن موسى من بعده، ولما فرغ من بيعة بنى هاشم، دعا بالقواد فبايعوا، وبلغ من حرص المنصور على حفظ التوازن بين عنصرى السكان فى بغداد أنه لما شرع فى تأسيس بغداد قسمها ـ كما قلنا ـ أربعة أرباض وعهد إلى أربع من كبار رجال دولته بالإشراف على عمارة هذه الإرباض فكما جعل ربضاً يشرف على تأسيسه الربيع بن يونس، عهد إلى أبى يعقوب المورياني ـ وزيره الفارسى ـ بالإشراف على أحد الأرباض[2].

سار المهدى على سياسة أبيه فى حفظ التوازن بين عنصرى السكان فى بغداد، فأسند حجابته إلى الربيع بن يونس، وأختص به كما كان مع أبيه[3]، وأستوزر أبا عبيد الله بن معوية بن يسار مولى الأشعريين وفوض إليه تدبير مملكته فعهد إليه بالإشراف على الدواوين، وتنظيم أمر الخراج، وصنف فى الخراج كتاباً ذكر فيه أحكامه الشرعية، ودقائقه وقواعده، وحرص هذا الوزير العربى على إبعاد الفرس عن المهدى، حتى يصفو الأمر للعرب دون سواهم، فلما رأى تقرب

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥١هـ.
(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٦٠.
(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٠٠.

الفرس إلى الخليفة، جمع أربعة رجال من قبائل عربية شتى من أهل العلم والأدب فضمهم إلى المهدى، وصاروا من أصحابه المقربين، وحالوا بينه وبين الجلوس إلى الفرس[١].

وكان المهدى يطمئن إلى العرب ويأنس بهم، فحينما ذهب إلى الحج سنة ١٦٠هـ أمر باختيار خمسمائة من الأنصار، ونقلهم إلى بغداد، ليكونوا حرسًا له وأعوانًا، وأجرى عليهم أرزاقًا سوى أعطياتهم وأقطعهم عند. . قدومهم معه إلى بغداد قطيعة عرفت بهم[٢]. وكان الخليفة المهدى يجتمع بانتظام فى بغداد مع القرشيين للنظر فى حوائجهم[٣] وكان فى ذلك يسير على سياسة أبيه المنصور[٤]، لكن المهدى عاد فأسند بعض المناصب الهامة إلى الفرس، فعزل أبا عبيد الله بن معاوية عن الوزارة، وأسندها إلى يعقوب بن داود ـ الفارس الأصل ـ ثم الفضل بن صالح[٥].

إزداد نفوذ الفرس فى عهد الخليفة الرشيد الذى أسند أمور دولته إلى البرامكة الفرس، وأستبدوا بأمور الدولة دونه، فالخلافة على الحقيقة كانت لهم، وليس للرشيد منها شئ إلا أسمها وقد استاء العرب فى بغداد من ذلك وسعوابهم إلى الرشيد ومن أبرز من تصدى للبرامكة من العرب الفضل بن الربيع الذى مازال يحرض الرشيد على التخلص منهم، ويذكره باستبدادهم بالملك حتى أوغر صدره عليهم، فأوقع بهم، وكان لتأثير السيدة زبيدة ـ زوجة الرشيد ـ العربية الهاشمية ـ أثر واضح فيما حل بالبرامكة، وفى تولية ابنها محمد العهد قبل المأمون، كذلك حرض بنو هاشم فى بغداد الرشيد على أخذ البيعة لمحمد الأمين قبل أخية المأمون، وفيه ما فيه من الأنقياد لهواه والتصرف مع طوبتبه، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والآماء لرأية، وقالوا: إن ملت إلى عبد الله المأمون ـ وأمه فارسية ـ أسخطت بنو هاشم[٦]. وكان الأمين أصغر سناً من المأمون، وأمه ـ كما قلنا ـ عربية. أما المأمون فأمه فارسية.

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥١هـ.
(٢) المصدر السابق حوادث ١٦٠هـ.
(٣) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص٤٥.
(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨هـ.
(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥٦، ١٦٤.
(٦) المصدر السابق ص٢٢٨.

وجاءت نكبة البرامكة انتصاراً للعرب على الفرس، وارداد نفوذ العرب نتيجة لها. فاسندت الوزارة إلى الفضل بن الربيع بعد البرامكة ـ وكان حاجباً للمنصور والمهدى والهادى ـ ومازال الفضل وزيرا للرشيد حتى توفى[1] ـ أى الرشيد ـ كذلك أسند الرشيد قيادة الجيش وديوان الجند إلى الشحر الهذلى وعبد الله بن عبده الطائى[2].

لما ولى الأمين الخلافة انتعش العرب فى بغداد، وارداد نفوذهم بينما ضعف شأن الفرس، وأسندت المناصب الكبيرة إلى العرب فقلد الأمين، العباس بن الفضل بن الربيع حجابته، والفضل بن الربيع الوزارة، وبكر بن المعتمر ديوان الخاتم[3].

رأى العرب فى بغداد ضرورة تأمين ما حصلوا عليه فى عهد الأمين من مكاسب وامتيازات، فسعوا إلى تحريض الأمين على نقض بيعة أخيه المأمون بولاية العهد، لأن المأمون تربى منذ نعومة أظفاره فى أحضان الفرس، لذلك سعى العنصر العربى فى بغداد ـ وعلى رأسه الفضل بن الربيع ـ بالأمين لخلع المأمون، ونقل ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى. والحقيقة أن ذلك لم يكن من رأى الأمين ولا من عزمه، بل كان عزمه الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل بالخليفة يصغر فى عينيه شأن المأمون، ويزين له خلعه حتى قال له: ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما، وإنما أدخلا فيها بعدك واحدا بعد واحد[4].

على كل حال أفلح العنصر العربى فى إقناع الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد، ومبايعة ابنه موسى، وسماه الناطق بالحق، وتسبب ذلك فى

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٩.
(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٩٢.
(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٨٩.
(٤) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٤هـ.

حدوث صراع بين الأخوين الأمين والمأمون انتهى بقتل الأمين.

وجاء انتصار المأمون على الأمين انتصاراً للفرس على العرب، فاستعاد الفرس نفوذهم، بينما ضعف أمر العرب.

على أن العرب فى بغداد لم يستسلموا لما حل بهم من هزيمة على أيدى المأمون ورفاقه الفرس، فقد ساءهم وعلى رأسهم أمراء البيت العباسى ازدياد نفوذ الفرس، ووقوع المأمون تحت تأثيرهم، فلما سمع العباسيون فى بغداد ما فعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى وتغيير لباس آبائه وأجداده من السواد إلى الخضره، وأنكروا ذلك وخلعوا المأمون من الخلافة غضب من فعله، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى وكان فاضلاً شاعراً فصيحاً أديباً حاذقاً وقد عبر أحد وجوه العرب عن موقف المأمون المناهض العرب ـ ويدعى نعيم بن خازم ـ بقوله للفضل بن سهل ـ وزير المأمون الفارسى ـ إنك إنما تريد أن تزيل الملك من بنى العباس إلى ولد على، ثم تحتال عليهم، فتصير الملك كسرويا. ثم أقبل هذا الرجل على المأمون وحذره من عاقبة فعله بأن قال له: لا يخدعنك عن دينك وملكك فإن أهل خراسان لا يجيبون إلى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه[1].

ومهما يكن من أمر فقد خشى المأمون من ثورة أهل بغداد، فتخلص من وزير الفضل بن سهل، وقصد بغداد سنة ٢٠٠هـ وكان العرب قد سيطروا عليها سيطرة كاملة فهر ب عنها إبراهيم بن المهدى، والفضل بن الربيع، ودخل المأمون بغداد، واسترد نفوذه عليها[2]. على أن الفرس ظلوا فى عهده يشغلون المناصب الكبيرة فى بغداد إلا أننا نلاحظ أن المأمون لم يغفل العرب نهائياً بل قرب إليه أحمد بن أبى دؤاد، وكان ضليعاً فى الفقه وعلم الكلام والمنطق ومن أبرز العلماء الذين ينعقد بهم مجالس المأمون العلمية، وبتأثيره أمر المأمون بامتحان

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٣٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٠٠هـ.

الناس فى خلق القرآن، وبلغ من تقدير المأمون له أن أوصى المعتصم به بقوله: لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع ذلك[١].

عول العرب على استرداد نفوذهم فى بغداد بعد وفاة المأمون وتولية المعتصم، فالتفوا حول العباس بن المأمون معتزمين توليته الخلافة بدلاً من المعتصم الذى يميل إلى الترك، ولكن هذه المحاولة باءت الفشل، وتولى المعتصم الخلافة[٢]، وجرت على العرب نقمة المعتصم فى كراهيته، وأهمل أمرهم، واستعان بالترك فى أمور دولته، ورفع شأنهم، لكن العرب لم يرضخوا لما حل بهم من ضعف ووهن، بل تآمروا على المعتصم، وتزعم هذه الحركة العباس بن المأمون، وحاول العرب تنفيذ هذه المؤامرة أثناء غزو الخليفة لعمورية، وكان المعتصم قد أظهر انحيازاً واضحاً ضد العرب فحين وجه عجيف بن عنبسة إلى بلاد الروم، لم يطلق يد هذا العربى فى النفقات كما أطلق يد الأفشين، بل أستصفى المعتصم من شأن عجيف، واستبان ذلك لعجيف، فحرص العباس بن المأمون على التآمر ضد المعتصم ، والسعى بمساعدة العرب على التخلص من الخليفة وتولية العباسى، وبينما المعتصم يتجه بجيشه إلى عموريه، حاول العرب التنكيل، بقادة الترك، ولكن المؤامرة باءت بالفشل، ونكل الخليفة بالمتآمرين، ويقول المؤرخون إن ذلك أدى إلى إمعان المعتصم فى الاعتماد على الترك، وأبعاد العرب، وحذفهم من الديوان[٣]، فضعفت فيهم الروح العسكرية.

إلا أننا نلاحظ أن هذا القول فيه بعض المبالغة، إذ ظهرت شخصيات كبيرة فى عهده لعبت دورا كبيرا فى سياسة الدولة فأحمد بن أبى دؤاد، ولاه المعتصم منصب قاضى القضاة فى الدولة، وبلغ من تقدير المعتصم له أن قال: هذا والله الذى يتزين بمثله، ويبتهج بقربة، ويعتز به ألوف من جنسه، ولما مرض نذر المعتصم إن شافاه الله من مرضه بأن يتصدق بعشرة آلاف دينار[٤]. ولقد استغل

(١) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ٤ ص ١٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢١٨هـ.

(٣) Muir: The caliphate. p. 54.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص٣١.

هذا الرجل نفوذه فى الرفع من شأن العرب وإبعاد الضرو الأذى عنهم فالأفشين ـ قائد جيش المعتصم ـ كان يكره العرب ويقول: إذا ظفرت بالعرب شدقت رءوس عظمائهم بالدبوس وظهرت نواياه الانتقامية ضد أبى دلف ـ أحد القواد العرب سيد قومه كريماً شجاعاً شاعراً[1] وهم الأفشين بقتله. فأسرع ابن أبى دؤاد إلى الأفشين، وأنقذ الزعيم العربى[2] وشجع هذا أهل العلم والأدب فالتفوا حوله وأغدق عليهم، ووقف ببابه الشعراء مثل أبى تمام، وقرب إليه الجاحظ.

ولم يستسلم العرب لميل العتصم إلى الترك فنسمع عن كثير من البارزين منهم يطلبون من المعتصم رعاية أصحاب الحاجات من العرب الهاشميين والأنصار[3].

ومهما يكن من أمر فقد كانت الحياة الأجتماعية فى بغداد عربية فى روحها وساهم العرب بدور رئيسى فى توجيهها، فسادت تقاليد العرب وعاداتهم وأساليب حياتهم على نمط المعيشة في بغداد، فالدين الإسلامى الذى حمل لواءه العرب. وبشروا به فى العراق، كما بشروا به فى غير العراق، كان من الطبيعى أن يحدد الأسس الأجتماعية لحياة الناس، كما هو الحال فى المعاملات الشخصية والقضاء واتخاذ الجوارى والغلمان وبناء المساجد، وغير ذلك من الحدود التى رسمها الشرع، وظهر أثر الدين فى تعدد المذاهب الفقهية، فقد شهدت بغداد أئمة المذاهب الرئيسية، كما أن اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ واللغة الرسمية للدولة ـ لها أثرها فى تأكيد مركز العرب، ونبغ من العرب فى بغداد فى العصر العباسى الأول كثيرون فى علوم الدين واللغة. على كل حال ظل مركز العرب مرموقاً فى بغداد بصفة عامة فى العصر العباسى الأول، فمنهم الخليفة وأمراء البيت الحاكم وسائر بنى هاشم، والعرب لهم مركزهم أمام العناصر الأخرى فهم الذين مصروا الأمصار، وبذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل رفع راية الإسلام.

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص ٣٧٢.
(٢) التنوخى: الفرج بعد الشدة جـ٢ ص٦٨.
(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٣٧٠.

الفرس:

قلنا إن الفرس أزداد نفوذهم فى بغداد فى بضع سنى العصر العباسى الأول واستعان بهم العباسيون فى بداية حكمهم، لأنهم أقاموا ملكهم على أكتافهم، ويتضح لنا ذلك من قول المنصور لأهل خراسان: أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا. كما أوصى ولى عهده بهم بقوله: وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك، بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم(١). ولما أسس المنصور مدينة بغداد سمى باب خراسان، باب الدوله لإقبال الدولة العباسية منه(٢).

على أن الأعتماد على الفرس والرفع من شأنهم فى العصر العباسى الأول أثار مشاكل عدة فى بغداد، ذلك أن الفرس طموحون يعملون على إحياء مجدهم القديم، ويميلون إلى إبراز نحلهم القديمة. ويناصرون الشيعة. لذلك تصدى لهم الخلفاء وسخطوا عليهم، ولحق بهم من العباسيين الكثير من النكبات، لأن اتجاهاتهم تهدد أمن الدوله وسلامتها وأستقرارها.

أسند العباسيون إلى الفرس فى بغداد مناصب كبيرة مثل الوزارة وقيادة الجيش. لكن كثيراً منهم لم ينج من بطش العباسيين للأسباب التى ذكرناها فالخليفة المنصور قتل وزيره أبا أيوب المورياني، وقتل أقاربه، واستصفى أموالهم، لأنه أساء استغلال نفوذه وثقة الخليفة فيه(٣).

واستوزر المهدى يعقوب بن داود، وفوض إليه أمور دولته وسلم إليه الدواوين، وقدمه على جميع الناس، حتى قيل إن المشرق والمغرب بيد يعقوب. ولما اتضح المهدى أن هذا الوزير يتعصب للعلويين، وأسند إليهم بعض المناصب

(١) عصام الدين عبد الرءوف: تاريخ الإسلام فى العصر التركى ص١٣.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ ص ٢٢٧.

(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٥٧.

الهامه، وأطلق سراح أحد العلويين دون إذن الخليفة، ـ عزله وزجه فى السجن، ولم يزل فى سجنه حتى أخرجه الرشيد فاقد البصر[١].

أزداد نفوذ الفرس فى عهد الخليفة الرشيد، فقد استوزر كاتبه يحيى بن خالد ابن برمك، وكان البرامكة قديماً على دين المجوس، ثم دخلوا فى الإسلام وحسن إسلامهم، وقد كان خالد بن برمك من الشخصيات البارزة فى بغداد فى عهد الخليفة المنصور، ومن أهل الرأى فيها، وكان سخياً جليلاً، حتى قيل لم يكن يرجليس خالد دار إلا وخالد بناها له ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها ويرجع الفضل إلى يحيى بن خالد فى تولية الرشيد الخلافة[٢] ذلك أن الهادى اعتزم خلع أخيه الرشيد من ولايه العهد وتوليه ابنه موسى بدلاً منه فتصدى له يحيى بن خالد، وحذره بقوله: حملت الناس على نكث الإيمان، ونقض العهود، وتجرا الناس على مثل ذلك، ولو تركت أخوك هارون على ولاية العهد، ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته، وحذره من اعتراض بنى هاشم. ولما ولى الرشيد قدر ليحيى بن خالد موقفه، وعد هذا فضلاً كبيراً من يحيى عليه[٣].

واستوزره الرشيد، وكان يخاطبه بالأبوه، وبلغ من ثقته به أن قال له: يا أبة أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعيه، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت، وأسقط من رأيت، فإنى غير ناظر معك فى شئ[٤].

نهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض، وسد الثغور، وتدارك الخلل، وجبئ الأموال، وعمر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة وتصدى لمهمات المملكة، وكان صائب الرأى حسن التدبير.

(١) المصدر السابق ص ١٦٦-١٦٧-١٦٩.
(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥٠.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٧٩-١٨٧٠.
(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٢٧.

على أن نفوذ البرامكة ازداد فى بغداد وطغى على نفوذه الخليفة، وقد أستاء الرشيد من ذلك وقال: استبد يحيى بالأمور دونى، فالخلافة على الحقيقة له وليس له منها إلا أسمها[١].

كذلك وقف الرشيد على ميل البرامكة إلى التشيع، وسعى أعداء البرامكة عند الرشيد، وأوضحوا له استبدادهم بالملك وبأموال الدولة حتى أوغروا صدر الرشيد على البرامكة، فنكل بهم، وقد كانت نكبة البرامكة هزيمة الفرس، وأدت إلى ضعفهم.

ظل الفرس بعيدين عن السلطة والنفوذ فى بغداد بقية عهد الرشيد وطوال عهد الأمين، ودارت رحى الرب بين الأخوين الأمين والمأمون انتهت بمقتل الأمين وانتصار المأمون وتوليته الخلافة فعاد النفوذ الفارسى إلى قوته. فقد قرب المأمون الفرس إليه، وأسند إليهم المناصب الهامة فى الدولة. وجدير بالذكر أن المأمون نشأ وترعرع فى أحضان الفرس، فأمة فارسية، وأشرف البرامكة وبنو سهل الفرس على تربيته[٢].

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمى ذو الرئاستين لجمعه بين السيف والقلم، والفضل بن سهل من أولاد ملوك الفرس المجوس، وكان قهرمانا ليحيى ابن خالد بن برمك، ولما رأى الفضل نجابة المأمون فى صباه لزم ناحيته، ودبر أموره، وتنبأ بوصوله إلى الخلافة، وكان سخياً كريماً يجارى البرامكة فى جوده جليلاً عالماً بآداب الملوك[٣].

وقع المأمون تحت تأثيره وزيره الفارسى، لذلك أحدث تغييراً جذرياً فى نظام الخلافة، فعهد إلى على بن موسى، وكتب بذلك كتاباً بخطة، وأمر المأمون

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٠.

Hitti: Hist of the Arabs p. 280.

(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٧٩.

(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٣٢٩.

الناس يخلع لباس السواد، ولبس الخضرة وكان هذا بخراسان فلما سمع العباسيون فى بغداد ذلك آثارهم نقل الخلافة من البيت العباس إلى البيت العلوى، وخلعوا المأمون، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى، ولما بلغ المأمون ذلك تخلص من وزيره الفضل بن سهل، وكان يحجبه فى مرو عن سائر الناس، ويمنع الأخبار عنه، وسار إلى بغداد، وأعاد لباس السواد وأرضى بنى هاشم، على أنه استمر فى إسناد الوزاره إلى الفرس، فقلد الحسن بن سهل وزارته، وتزوج ابنته، وكان أعظم الناس منزلة عند المأمون[1] على أن نفوذ الفرس لم يستمر طويلاً، فلما توفى المأمون، وولى المعتصم الخلافة، أبعد الفرس كما أبعد العرب، واستعان بالترك.

وصفوة القول أن الفرس اشتركوا فى الحياة السياسية فى بغداد وكان لهم أثر أوضح فى إدارة أمور الدولة، واشتركوا فى الجيش، الذى كان يضم فرقة منهم، وساهموا بنصيب كبير فى الحياة الفكرية لكن بعضهم لم يصح إسلامه فأظهروا نحلهم القديمة كالزندقة، وبذل الخلفاء قصارى جهدهم فى تعقبهم واستئصال شأفتهم وكان هؤلاء الفرس قد دخلوا فى الإسلام ظاهراً ليستفيدوا من حقوق المواطن المسلم لكنهم ظلوا يخلصون لعقيدتهم القديمة، ويعملون على بثها فى العلوم والآداب.

الأتراك

إستاء المعتصم من الفرس والعرب، ورأى ضرورة استبدالهم بعنصر آخر، ليس له مطامح الفرس القومية، ولا الأهواء السياسية التى للعرب يضاف إلى ذلك أن المعتصم أمه تركية، وكان به صفات الأتراك من حيث الشجاعة وقوة البأس، فضلاً عن أن الأتراك يتميزون بالروح العسكرية.

جلب الأتراك إلى بغداد من بلاد ماوراء النهر، وكانوا رجالاً أشداء يعيشون

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٠٢.

رعاة وصيادين فى هضابهم وجبالهم العالية، لذلك عرف عنهم. خشونة الطبع وقوة الشكيمة، وأثرت هذه الحياة فى أخلاقهم لذا برعوا فى أساليب الحرب والقتال. وساعدهم على الأندماج فى مجتمع بغداد، أعتناقهم الإسلام وتعلمهم اللغة العربية.

توافد الأتراك على بغداد بطرق شتى، إما عن طريق وقوعهم فى أسر العرب الفاتحين، وبيعوا فى الأسواق الرقيق، وإما عن طريق إرسال ولاة الأقاليم التركية تركا ضمن الجبايات التى كانت ترسل إلى بغداد[١]، وأما عن طريق هجرة كثير من الأتراك إلى بغداد بعد فتح بلادهم لتحسين أحوالهم المعيشية. وكانت بلاد ما وراء النهر خصوصاً سمرقند أكبر أسواق تجارة الرقيق الأبيض. وكانوا مدربين تدريباً خاصاً[٢].

توافد الأتراك بكثرة على مدينة بغداد منذ تأسيسها، وازداد طلب الخلفاء لهم لأن مميزاتهم العسكرية تؤهلهم ـ كما قلنا ـ للعمل فى حراسة الخلفاء، وكان المنصور أول من أستخدم الأتراك كحرس بل واعتمد عليهم كذلك فى الأعمال المدنية، فالجهشيارى[٣] يذكر أن المنصور أمر حماد التركى ـ أحد كبار موظفيه ـ بتعديل نظام الضرائب فى السواد. وكان قصر الرشيد يضم بضعة مئات من الغلمان الترك[٤].

استكثر المعتصم من الترك حتى بلغ عددهم ثمانية آلاف رجل، وتكون منهم فرق من الجيش يقودها قواد من الترك، وكانت هذه الفرق فى عزله تامة عن بقية الجيش. وازداد نفوذ الترك فى بغداد، وأصبح لهم السلطة والنفوذ فيها، بينما ضعف أمر العرب والفرس.

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٨٥ - ٢٨٦.
(٢) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٢٦٨.
(٣) الوزراء والكتاب ص ١٣٤.
(٤) الأصفهانى: الأغانى جـ٥ ص٢٣٠.

وبذلك دخل فى نزاع العصبية عنصر قوى جديد، فقد كان النزاع من قبل محصوراً بين الفرس والعرب، فأصبح بين العرب والفرس من ناحية والترك من ناحية أخرى، ووجه الترك كل جهودهم للنيل من الفرس والمستبدين بالسلطان، وبعد أن كانت الأحداث تنصل بأعلام الفرس كأبى مسلم الخراسانى والبرامكة وبنى سهل ظهر تاريخ مرتبط أحداثه بأشناس وايتاخ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين فى شئونها[1].

حافظ المعتصم على جنوده الترك، وحرص على أن تبقى دماؤهم متميزة فجلب لهم نساءاً من جنسهم، وكان المعتصم ينفق على جنده الترك بسخاء، وعنى بزيهم وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة واتخذلهم ثكنات خاصة، يعيشون فيها معيشة كريمة، وقد خص المعتصم الأتراك بالنفوذ ـ كما قلنا ـ وجعل لهم مراكز كبيرة فى مجالات السياسة والحرب، وأجزل عليهم الهبات والأرزاق وفضلهم على سائر جنوده[2].

وكانت الأتراك تؤذى أهل بغداد بجريها للخيول فى الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لإمرأة أو شيخ كبير أوصبى أو ضرير[3] وضاقت بغداد بعسكر المعتصم، فتأذى منهم الناس، وزاحموهم فى دورهم، وتعرضوا للنساء فخشى المعتصم من أن تحدث فتنة فى بغداد بين جنده من ناحية وأهل بغداد العرب والفرس من ناحية أخرى. لذلك نقل حاضرة دولته إلى سامرا، ونقل إليها جنده الترك وقال: إن رابنى من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة، وكنت قادراً على أن آتيهم فى البر وفى الماء[4].

يذكر بعض المؤرخين مثل الفخرى والسيوطى أن المعتصم قدم إليه رجل شيخ

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ص ٦.
(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٢. ص٢٦٦.
(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٦٦.
(٤) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١١.

وقال له: جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك، والله لنقتلنك بسهام السحر ـ يعنى الدعاء ـ فسار المعتصم إلى موضع سامرا فبناها. وهذه الرواية متؤخرة لا يمكن قبولها لأن العمل الكبير الذى قام به المعتصم من حيث بناء مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته لا يمكن القيام به خوفاً من دعاء شيخ وإنما المعقول أن المعتصم رأى بنفسه بذورفتنة تؤدى إلى إضطراب أمور دولته وانقسام جيشه، وكان يعرف ويدرك جيداً قوة بأس جنده الترك وتهورهم، بدليل ما ذكره الطبرى من أن المعتصم شكى إلى نديمه إسحاق الموصلى من مغبة أصطناعه للترك[1].

وصفوة القول أن عناصر السكان فى بغداد كانت تتكون ـ كما رأينا ـ من العرب والفرس والترك، وأنهكت العناصر العربية والفارسية قواها بالصراع الذى دار بينهما حول الاستئثار بالسلطة والنفوذ، وظهر الترك أخيراً على مسرح الأحداث، وحلوا محل العرب والفرس. غير أن أزدياد نفوذهم فى بغداد أدى إلى طغيانهم فنقل المعتصم حاضرة دولته من بغداد إلي سامرا، ففقدت بغداد مركز السيادة على العالم الإسلامى، وتأثرت الحياة الأجتماعية والأقتصادية فى بغداد نتيجة لذلك، وزادت نقمة أهل بغداد على الترك، وتجلى ذلك فى الأحاديث التى وضعها المحدثون فى ذم الترك تعبيراً عن شعورهم وشعور أهل بلدهم.

وكما أنقسم أهل بغداد إلى عرب وفرس وترك، أنقسم المسلمون فيها إلى سنة وشيعة: فأما أهل السنة فلهم المركز الأول فى بغداد لأن السنة مذهب الدولة الرسمى، وعاش فى بغداد كبار أئمة السنة، وصنفوا فيها المصنفات القيمة، مثل أبى حنيفة النعمان وأبى يوسف وأحمد بن حنبل.

أما الشيعة فى بغداد فعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين كانوا فى عداء مع العلويين ـ حتى لا يكاد يخلو عهد خليفة منهم من غير أن يثور عليه أحد الشيعة

(١) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٢٧هـ.

ـ فقد عاش فى بغداد فريق منهم دون أن يتعرض لأضطهاد العباسيين، وكان وزراء العباسيين الفرس يميلون إلي العلويين، ويحاولون أبعادهم عن بطش بنى العباس، بل ويسعون لدى الخلفاء للنظر فى احتياجاتهم وتلبيتها، وظهر طالبيون فى بغداد وصلوا إلى أعلى المناصب، فيقطين دخل فى خدمة أبى العباس والمنصور ـ وكان شيعياً ـ وكان ابنه على يحمل الأموال إلى أبى جعفر محمد بن على[١]، ووفد على بغداد وأقام بها فترة من الوقت الإمام الشافعى، وكان شديداً فى التشيع، وحضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبيين. فقال لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم، وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل[٢]، على أن ازدياد خطر العلويين فى عهد الرشيد دفعة إلى إخراج الطالبيين من بغداد إلى المدينة المنوره[٣].

ومما لا شك فيه أن العلويين انتعشوا فى عهد المأمون فقد نقل ـ كما ذكرنا ـ ولاية العهد إلى على بن موسى، وأمر الناس بلبس الخضرة بدلاً من السواد. لكن على بن موسى لم يلبث أن توفى. وعاد المأمون إلى بغداد، وأمر الناس بالعودة إلى لبس السواد. وظهر فى بغداد علويون لهم نشاط علمى كبير مثل الواقدى، ولى القضاء المأمون، وكان عالماً بالمغازى والسير والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والفقه[٤]. وأوصى المأمون آخاه المعتصم بالعلويين خيراً.

ب- أهل الذمة

شكل أهل الذمة فى بغداد فى العصر العباسى الأول عنصراً هاماً من عناصر المجتمع. والواقع كانت معاملة الخلفاء ورجال الدولة لهم تتم عن عدل وتسامح وكرم، وأطلق الخلفاء لرؤسائهم الروحيين مباشرة أمور وشئون أبناء ملتهم، وكان

(١) ابن النديم: الفهرست ص٣١٤.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٥.
(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٢١هـ.
٤) ابن النديم: الفهرست ص١٤٤.

رئيس النصارى فى بغداد يسمى الجاثليق، ويعينه الخليفة بعد استشارة كبار الأساقفة، ويتم تعيينه بعهد أو منشور يتضمن الحقوق والامتيازات التى تمنحها الدولة له ـ أى للجاثليق ـ وتمنحه الحق فى مراجعة حكومة بغداد فى الأمور التى تتعلق بالمسيحيين الرعايا[١].

وكان الجاثليق الجديد إذا تم تعيينه، يسير بحفاوة إلى قصر الخلافة وهناك يمنحه الخليفة عهد توليته، ويتضمن حقوقه فى مباشرة سلطاته ثم تلقى عليه الخلع الثمينه، وبعد ذلك يتوجه إلى المدائن، وتصحبه فرقة من الجنود وجماعة من القسس والأساقفة، وكبار رجال الدولة حيث يزور ضريح مارى فى ديره، وفقاً للتقاليد المتبعة فى ذلك ثم يعود إلى بغداد، ويقيم فى كنيسة دار الروم ـ مقره الرسمى ـ[٢].

قلنا إن الجاثليق كان من حقه مباشرة شئون النصارى، وإصدار قرارات تعيين أفضل القسس والأساقفة وسائر رجال الكنيسة ومن حقه معاقبة النصارى، وذلك بفرض الغرامات عليهم، وإصدار قرار الحرمان على من يستحق منهم، غير أن الأحكام الجنائية الكبيرة كالإعلام لا تدخل فى إختصاصاته، إنما كانت من حق الحكومة[٣] ومن أبرز من ولى منصب الجاثليق فى بغداد طيمثاوس الأول (٧٨٠م-٨٣٢م) وقد كان على علاقة وثيقة بالخلفاء العباسيين الخمسة الأول الذين عاصرهم ولقى منهم كل رعاية وتقدير، وكان الخليفة موسى الهادى يستدعيه إلى قصره ويحاوره فى مسائل الدين، ويجيبه بما يتفق مع وجهة نظره[٤].

أما اليهود فلهم رئيس خاص، يلقب أحياناً بلقب ملك، يدفع له أهل ملته الضرائب، وكان نصف ما يحصل من اليهود يعطى لرئيسهم،

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص٤٢.
(٢) روفائيل بأبو إسحاق: تاريخ نصارى العراق ص٦٧.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص٤٢.
(٤) المصدر السابق ص٦٨.

ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال بخلاف ما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة[١].

أذن الخلفاء العباسيون للنصارى واليهود بتشييد كنائس ودور عبادة لهم، فوافق الخليفة المهدى على تشييد كنيسة للنصارى فى محلة الروم بالجانب الشرقى من بغداد ـ الرصافة ـ وتقضى القاعدة الفقهية بترك البيع والكنائس لأهل الذمة، ويخروج النصارى بالصلبان أيام أعيادهم، ومن حق أهل الذمة على المسلمين حقن دمائهم، ويقاتل المسلمون من ناوأهم من عدوهم، ويذبوا عنهم[٢].

وبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم. ويأمر بصيانتها، ففى أيام الرشيد كان النصارى يخرجون فى بغداد يوم عيد الفصح فى موكب كبير وبين أيديهم الصليب، إلا أنهم كانوا يخرجون بلا رايات[٣]، وكان أهل الذمة يقيمون حفلاتهم الدينية بحرية تامة يظهر فيها اللهو والطرب، ويبلغ السرور أقصاه، ويشاركهم المسلمون فى هذه الاحتفالات. وكان الخليفة المأمون يهتم بالنظر فى أمور أهل الذمة، ويعقد مجلساً استشارياً يتألف من ممثلى جميع الطوائف، ويستمع إلى مطالبهم، ويعمل على تحقيقها[٤].

ولا أدل على تسامح الخلفاء من أنهم تركوا أرقاءهم وجواريهم على ملتهم، وكان المهدى جارية نصرانية، ترتدى رداءها القومى وتعلق فى صدرها صليبا من ذهب[٥].

وكانت الأديرة المسيحية منتشرة فى جميع أنحاء بغداد حتى لم تخل منها ناحية، ويقم فيها للنصارى شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة، وتحاط بالأسوار العالية والأبواب الحديدية وتأوى اللاجئ إليها والمجتار بها، وأقام رهبانها دور

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص ٥٨.
(٢) أبو يوسف: الخراج ص ٨٠.
(٣) روفائيل بأبو إسحق: تاريخ نصارى العراق ص٢٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ابن رسته: الأعلاق النفسية ص٢١٣.

ضيافة لمبيت الزوار، وعابرى السبيل، ويقضى للنصارى فى بغداد أعيادهم فى ديارات معروفة، ولا يبقى أحد من يحب اللهو إلا تبعهم، والواقع أن الديارات كانت أماكن مناسبة جدا للنزهة والترفيه، فكانت تقع فى أماكن غاصة بالبساتين والشجر والنخل والرياحين، لذلك حرص المسلمون من أهل بغداد على قضاء أوقات فراغهم بها، وعقد مجالس اللهو هناك[١] ومن أقرب الديارات إلى مدينة بغداد دير قوطا فى قرية البردان على شاطئ دجله، ويفصله عن بغداد بساتين ومتنزهات متتابعة[٢].

ومن أشهر بيع بغداد بيعة سمالو وبيعة درب دينار، وبيعة درب القراطيس، وبيعة سوق الثلاثاء[٣]، على أن الحرب بين قوات الأمين وقوات المأمون قد ألحقت الكثير من التخريب والتدمير بكنائس بغداد وأديرتها[٤].

ساهم أهل الذمة فى بغداد فى إزدهار الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول ونشر المعرفة، فأسسوا المدارس وقاموا بالتدريس لأبناء كبار رجال بغداد، وترجموا الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ذلك أن الخلفاء العباسيين الأوائل عنوا بترجمة الكتب العلمية واستعانوا بأهل الذمة فى حركة الترجمة هذه، وقدر الخلفاء جهودهم ومنحوهم الرواتب الجزيلة، وكان الخلفاء يرسلون العلماء الموثوق بهم من أهل الذمة إلى الدولة البيزنطية لابتياع طرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ويعهدون إلى التراجمة من أهل الذمة بنقل هذه الكتب إلى العربية[٥].

ومن أشهر من ساهم فى حركة الترجمة بنصيب موفور من أهل الذمة، حنين ابن إسحاق، نشأ على حب العلم، وتتلمذ على الطبيب الحاذق يوحنا بن

(١) الشابستى: الديارات ص ٣، ٩، ١٦، ١٨، ٣٠.
(٢) المصدر السابق ص٤١.
(٣) روفائيل بأبو إسحق: تاريخ نصارى العراق ص ٦٩.
(٤) ابن النديم: الفهرست: ص٣٣٩.
(٥) Hitti: Hist. of the Arabs. p.327.

ماسوية، وتوجه إلى الدولة البيزنطية وأقام بها فترة من الوقت درس خلالها اللغة اليونانية، وعاد إلى العراق ودرس اللغة العربية دراسة مستفيضة على الخليل بن أحمد، ثم عاد إلى بغداد، ومكنته معرفته القوية باللغتين اليونانية والعربية من القيام بنشاط كبير فى حركة الترجمة، فنقل كتاب أقليدس وكتاب المجسطى لبطليموس وكتاب أبولونيوس فى المخروطات ولخص مؤلفات أفلاطون وسقراط وجالينوس، ونقلها إلى العربية، ولم يكن مجرد مترجم للكتب التى أشرنا إليها، بل كان يعلق عليها، ويوضح ما فيها، ويلخص ما يحتاج إلى تلخيص، ويبوبها، وبالجملة كان خير ما قدم خلاصة الفكر اليونانى إلى المثقفين العرب، وبالإضافة إلى ما قام به من ترجمة، فقد صنف أكثر من خمسة وعشرين كتاباً[1].

ومن أبرز مترجمى المأمون من أهل الذمة يوحنا بن البطريق، وكان أميناً على ترجمة الكتب العلمية حسن التأدية للمعانى، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب[2]، وعنى المأمون بعقد مجالس علمية فى قصره يناظر فيها العلماء على اختلاف تخصصاتهم، وكان أغلب علماء العلوم العقلية من أهل الذمة[3].

من أبرز المهن التى عمل بها أهل الذمة فى بغداد ـ لاسيما النصارى ـ مهنة الطب، فقد برعوا فى تشخيص الأمراض، ووصف العلاج الناجع لها ونقلوا الكتب الطبية من اللغة اليونانية إلى العربية، وانكبوا على دراستها، وإضافة الجديد لها مما يتمشى مع خلاصة تجاربهم وقراءاتهم. ومن أشهر أطباء المنصور جيورجيس بن بختيشوع استدعاه المنصور لما ألم به مرض شديد، وكان رئيساً لمستشفى جنديسابور فحضر إليه مع تلميذه عيسى بن شهلاتا، ودعا للمنصور بالفارسية والعربية، فأعجب المنصور من حسن منطقه، وعالج المنصور وأحسن علاجه، فأمر له بخلعة جليلة، وأمر بإنزاله فى أجمل موضع وأكرمه كما يكرم

(١) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٤٤.
(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٣٣٦، ٣٣٩.
(٣) المصدر السابق ٢١٤.

أخص الأهل[١] وجدير بالذكر أن المنصور، دعا طبيبه إلى اعتناق الإسلام، فرفض الطبيب وقال: أنا دين آبائى أموت، وحيث يكون آبائى أحب أن أكون إما فى الجنة أو فى جهنم[٢].

على كل قدر المنصور طبيبه أحسن تقدير، وأهداه ثلاث جوار روميات مع منحة قدرها ثلاثة آلاف دينار، ولما مرض هذا الطبيب زاره المنصور، وأمر بحمله إلى دار العامة، ووافق على رغبته فى العودة إلى بلده، وأنفذ معه خادماً، ومنحه عشرة آلاف دينار واتخذ المنصور من بعده عيسى بن شهلانا طبيباً خاصاً له بعد أن وقف على مهارته[٣] لكن هذا الطبيب استغل صلته الوثيقة بالخلافة، وآذى بنى قومه من النصارى، فلم يقبل المنصور منه ذلك، وعاقبه ونفاه[٤].

ووفد على الرشيد الطبيب بختيشوع بن جيورجيس من أطباء جنديسابور، فأكرمه وخلع عليه خلعة سنية، ووهب له مالاً وأخيراً جعله رئيس الأطباء ودخل ابنه جبريل فى خدمة البرامكة، ومما يجدر ذكره أن جبريل هذا عالج الأمين والمأمون، وكانت رواتبه سبعمائة ألف وأربعة وثلاثين درهم سنوياً، وأحصى ما ربحه من الرشيد فكان ثلاثمائه ألف وثمانين مليوناً من الدراهم[٥].

ومن أساتذة الطب فى عهد الرشيد يوحنا بن ماسوية النصرانى السريانى ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، وكان موضع تقدير الناس فى بغداد، وله مصنفات قيمة، وكان يعقد مجالس علمية يتناول فيها خلاصة معرفته، وقد وفد إليه طلاب العلم للإستفادة من علمه، والاستزادة من معرفته[٦].

كما عالج بختيشوع بن جبريل المأمون والمعتصم والواثق[٧] وجالسهم ونادمهم ونال منهم العطايا السنية، وصنف كتباً فى الطب.

(١) Hitti: Hist, of the Arabs P. 363.

(٢) ابن أبى اصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ١ ص ١٢٥.

(٣) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢١٥.

(٤) المصدر السابق جـ٢١٥.

(٥) المصدر السابق ص٢٢٦.

(٦) القفطى: إخبار العلماء بأخبار العلماء ص ٧١-٧٢.

(٧) المصدر السابق ص ٩٩-١٠٠.

ومن أبرز الأطباء النصارى فى بغداد سهل بن سابور، ومن أطباء المأمون جبريل الكحال، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان أول من يدخل إليه فى كل يوم[١]، كان سلموية عالماً بصناعة الطب وعالج المعتصم مرضه، وبلغ من اعتزاز المعتصم به أن هذا الطبيب لما توفى قال المعتصم: سألحق به لأنه كان يمسك حياتى، ويدير جسمى وامتنع عن الطعام فى ذلك اليوم بل أمر بإحضار جنازته إلى قصره، وأن يصلى عليه بالشمع والبخور وفقًا للرسوم الجنائزية المتبعة عند المسيحيين[٢].

كذلك شغل أهل الذمة فى بغداد، وظائف التنجيم لمعرفتهم بأمور الكواكب والنجوم، ومن أبرز من عمل هذا المجال، ما شاء الله اليهودى الذى كان منجمًا للمنصور، وكان أوحد زمانه فى رصد النجوم[٣] وكان للخليفة المهدى منجم نصرانى يسمى توفيل بن توما، وبلغ من ثقته به أن جعله رئيس منجميه، وصنف وترجم بعض الكتب فى هذا المجال[٤]، وكان سند بن على ـ وهو يهودى ـ منجماً للمأمون، ودخل فى الإسلام، وهو فى جملة الراصدين، ثم أهلته كفاءته إلى أن أصبح على الأرصاد كلها[٥].

أندمج أهل الذمة فى المجتمع العربى فى بغداد ولم يقتصر نشاطهم على الترجمة أو الأشتغال بالطب والفلك بل أنكبوا على دراسة اللغة العربية وآدابها، وصنف رجال منهم كتاب أدبية مثل حبيب أبو رائطة التكريتى والجاثليق طيشاوس، وعرف أيضاً من شعراء وأدباء النصارى أبو قابوس، وانقطع إلى البرامكة، واشتهر كذلك عيسى بن فرخنشاه ـ وكان من أهل بغداد ومن كتاب الدواوين[١] وكان إتقان أهل الذمة للغتين

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٩.
(٢) المصدر السابق ٢٤٠، ٢٤٣.
(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٣٣٩.
(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٢٠.
(٥) ابن النديم: الفهرست ص ٣٤٠.

العربية واليونانية سبباً فى إسناد الخلفاء لهم السفارات الدبلوماسية إلى الدولة البيزنطية وغيرها[٢].

كذلك اشتغل أهل الذمة فى الدواوين، وكان لعدم إخلاص بعضهم فى تأدية واجباته أثره فى ارتياب فى اخلاصهم فموسى ـ وهو ذمى ـ أحد اثنين كلفهما المنصور بجباية الخراج ـ ولما ساءت سيرته، غضب منه المنصور وعزله. وأمر بمعاقبة كل عامل أو والى يستعمل كاتباً من أهل الذمة[٣] وعلى الرغم من أن الرشيد عرف بتسامحه مع أهل الذمة إلا أنه أمرهم بألا يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم وركوبهم[٤] ومما لا شك فيه أن هذا الإجراء ليس اضطهاداً من الخليفة لأهل الذمة، أو امتهانا لهم، بدليل أن القاضى أبا يوسف الذى حث الرشيد على اتخاذ هذا الإجراء هو نفسه الذى حث الرشيد على حسن معاملة أهل الذمة فقال للخليفة: ينبغى أن تتقدم بالرفق بأهل الذمة والتفقد لهم حتى لا يظلموا أو يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شئ من أموالهم بحق يجب عليهم[٥].

ومهما يكن من أمر فقد كان عدد النصارى فى بغداد أكثر بكثير من عدد اليهود، وأشتغل اليهود بالتجارة والصناعة، ونبغ بعضهم فى الطب، كما كانوا على صلة وثيقة بالخلافة وكبار رجال الدولة لاشتغالهم بتجارة المجوهرات.

انفصلت الطوائف الدينية عن بعضها تمام الأنفصال، فلم يقع تزواج بين المسلمين وغير المسلمين، ولا يمكن للمسيحى أن يعتنق اليهودية، ولا يستطيع اليهودى أن يدخل فى المسيحية، واقتصر التغيير فى الدين على الدخول فى الإسلام فقط، ولا يجوز للمسيحى أن يرث اليهودى، ولا اليهودى أن يرث

(١) روفائيل بأبو إسحق: تاريخ نصارى العراق ص ٨٤-٨٥.
(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٣٤.
(٣) الخراج ص٧٢.
(٤) المصدر السابق ص٧١.
(٥) Hitti: Hist. of the Arabs P.352.

المسيحى ولا يرث المسيحى واليهودى المسلم، والمسلم لا يرث المسيحى أو اليهودى وفى ذلك قال الرسول: «لا يتوارث أهل ملتين»[١].

(حـ) الرقيق:

كثر الرقيق فى بغداد فى العصر العباسى الأول، وساعد على كثرته الانتصارات الكثيرة التى كانت تحرزها الدوله الإسلامية على أعدائها وما يتبع ذلك من استخواذها على مغانم كثيرة، من بين هذه الغنائم الأسرى[٢]، وكانت بعض الولايات الإسلامية ترسل إلى بغداد رقيقاً كجزء من الأتاوة المفروضة عليها[٣]. فضلاً عن أن الرقيق يجلب من الأسواق.

كذلك امتلات قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة بالرقيق من أجناس مختلفة منها الأبيض والأسود والأصفر تختلف فى لغاتها وعاداتها وتقاليدها[٤]، ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الأرقاء نظرة امتهان وازدراء، ولا أدل على ذلك من أن كثيراً منهم كانوا أبناء أمهات وقعن فى أيدى آبائهن عن طريق الأسر أو الأسترفاق، بل إن بعض كبار رجال الدولة كانوا يتخذون الإماء من غير العرب، ويفضلونهن على العربيات الحرائر[٥].

ومما يجدر ذكره أن الخليفة المنصور أمه أم ولد يقال لها سلامة البربرية[٦] كذلك كان الهادى والرشيد والمأمون والمعتصم من أمهات أولاد ولم يكن من خلفاء العصر العباسى الأول من أم عربية حرة سوى المهدى والأمين وقد ينجب الرجل ذرية بعضها من أولاد الجوارى والبعض الآخر من أولاد الحرائر. فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجوارى، فالامين كان يفخر على المأمون بأنه لم يجر فى عروقه دم رقيق[٧].

(١) متز: الحضارة الإسلامية ص ٥٦-٥٧.
(٢) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٨.
(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص٢٨٣.
(٤) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص٩٨.
(٥) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٩٤.
(٦) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٢٢٣.
(٧) المصدر السابق جـ٢ ص٢٤٣.

على أن الجارية أو الأمة قد أتيحت لها الفرصة للانتقال إلى مرتبة أعلى من مرتبةَ الرق. فإذا أنجبت من سيدها سميت أم ولد وصارت فى وضع أرفع شأنًا من وضع الامة، فلا يجوز لسيدها أن يبيعها أو يهبها وإنما تبقى حلاله، وإذا توفى سيدها، صارت حرة، ينطبق عليها أحكام الميراث، والطفل الذى يولد من أمة يكون حراً.

انتشرت تجارة الرقيق فى بغداد، فكان بها محلة تسمى دار الرقيق[1] وكان بالرصافة ـ الجانب الشرقى من بغداد ـ محلة دار الروم نسبة إلى سكانها الذين قدموا إليها فى عهد المهدى أسرى من بلاد الروم، واشتهر كثير من تجار الرقيق فى بغداد من النخاسين، وسبب شهرتهم كثرة ما كان يفد عليهم من الشعراء والأدباء لابتياع الجوارى الحسان، وكان بالكرخ نخاس يسمى أبو عمير له جوار قيان لهن ظرف، وكذلك أبو خطاب النخاس، ومنهم حرب بن عمير، وله جارية مغنية يفد إليها الشعراء وأهل الأدب فى بغداد للاستماع إليها[2].

والنخاس ينادى لمن حوله من الراغبين، ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الحسن والجمال. ومن بينهن جوار عليهن اللباس الفاخر ويتخذن العصائب المحلاة بالدر والجواهر، وكان على تجار الرقيق عامل من قبل الحكومه يشرف على أعمالهم، ويراقب تجارتهم، يسمى قيم الرقيق.

قلنا إن الرقيق تنوعت أجناسه وألوانه، وأحسن أنواع الرقيق، النوع الأبيض، وكان من الترك أو الصقالبة، والصقالبة يفضلون على الترك ويقول الخوارزمى[3]: ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى. وأكثر ما يجلب من بلاد البلغار، وكانت سمرقند أكبر مراكز تجارة الرقيق الأبيض، وخير رقيق بلاد ما وراء من تربيتها، وكان أهلها يتخذون من تهذيب وتربية الرقيق صناعة يعيشون منها.

ولقد كان لكل نوع من أنواع الرقيق صفات خاصة، فالهنديات عرفن بالطاعة

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٨ ص٤٧.
(٢) الأصفهانى: الأغانى ـ جـ٤ ص١٩٩.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص ٢٢٧.

والهدوء وإتقان مباشرة الشؤون المنزلية والاشغال اليدوية، واشتهرت مولدات المدينة بالمرح والميل إلى اللهو، وعرفت السودانيات بالميل إلى الرقص وألوان الطرب، والمغربيات والتركيات عرفن بإتقان الشؤون المنزلية، والعبد الرومى يجيد تدبير المنزل ويحب النظام ويميل إلى القصر فى الانفاق، والعبد الروى ويجيد الفنون الجميلة، والأرمن فيهم خشونة فى الطبع. على أن الرقيق المجلوب من بلاد السند كثرت جرائمهم مع سادتهم، فقل إقبال الناس على شرائهم، لذلك رخص سعرهم[1].

انتشرت فى بغداد ظاهرة تعليم الجوارى الغناء، وكانت الجارية إذا أتقنت الغناء تباع بثمن مرتفع جداً، وأول من عنى عناية كبيرة بتعليم الجوارى الغناء إبراهيم الموصلى، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ورفع من أقدارهن، وكان بعض الناس يبعثون بجواريهم إلى إبراهيم وإبنه إسحاق لتعلم الغناء، فإذا برعت فيه، استطاع سيدها أن يبيعها بثمن مرتفع[2] وكان عند إبراهيم الموصلى العديد من الجوارى يتقن الغناء من ألحانه، فبيعت جارية هندية تعلمت الغناء على أيدى إبراهيم الموصلى بمائتى ألف درهم[3].

وبلغ من حرص الناس على تعليم الجوارى للغناء أن بعض وجوه أهل خراسان كانوا يرسلون غلمانهم إلى إسحاق الموصلى ليعلمهم الغناء وكان يعلم الغلام منهم اللحن بألف درهم[4].

وجدير بالذكر أن إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق علما جارية مولدة صفراء تسمى قلم الصالحية الغناء، وبرعت فيه حتى ابتكرت حوالى عشرين لحناً، واشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار[5]، وكانت شارية جارية تعلمت الغناء حتى أتقنته، فاشتراها إسحاق الموصلى بثلاثمائة دينار، ولما تدربت على الغناء

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٢٥٨.
(٢) الأصفهانى: الأغانى جـ٧ ص ١٧٠-٢٩٤.
(٣) المصدر السابق جـ٥ ص١٢٧.
(٤) المصدر السابق جـ٥ ص٢٧٩.
(٥) المصدر السابق جـ١٢ ص٣٤٢.

اشتراها، إبراهيم بن المهدى بعد سنة بثلاثمائة ألف دينار، واشتراها المعتصم بعد ذلك بخمسة آلاف وخمسمائة دينار[١].

وكان للمهدى جارية من أصل فارسى، تعلمت فى الطائف وتتفقت وأنجبت إبراهيم بن المهدى وكان رجلاً أديباً ديناً شاعراً راوية للشعر وأيام العرب فصيحاً خطيباً[٢]، وكانت مكنونة من أبرز الجوارى فى الغناء، نشأت فى المدينة، وأتقنت الغناء، واشتراها بمائة ألف درهم[٣]، فغلبت عليه، وأنجبت عليه، وكانت شاعرة أيضًا تتقن الغناء ولها ألحان كثيرة[٤]. والواقع أن كبار الموسيقيين فى بغداد قد تخرج على أيديهم الكثير من الأرقاء والجوارى، ومن أبرز هؤلاء الأرقاء عبد أسود يقال له زرياب، كان مطبوعًا على الغناء، إبراهيم الموصلى، وربما حضر به مجلس الرشيد يغنى فيه، ثم انتقل إلى خدمة بنى الأغلب فى القيروان، وغضب عليه زيادة الله فغادر القيروان، وقصد الأندلس ودخل فى خدمة الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وذاع صيته[٥].

ومن الجوارى ظهرت شاعرات يتقن الشعر، وأول من اشتهر منهن بقول الشعر فى الدولة العباسية عنان بيعت بمائة ألف درهم، ولم يزل فحول الشعراء فى عصرها يلتقون بها فى منزل مولاها فيتقارضونها الشعر وتنتصف منهن[٦].

اشتغل الرقيق والجوارى عند سادتهم فى جمع الأعمال التى تدر عليهم الربح، فمنهم من عمل فى زراعة أرض سيده. ومنهم من اشتغل بالصناعة، ومنهم من عمل فى الحراسة أو فى الخدمة المنزلية، على أن أهم الأعمال التى أسندت إليهم كانت الجندية، فقد اشترى الخليفة المعتصم الرقيق الأبيض، وأدخله فى جيشه، وعنى به حتى بلغ عددهم بضعة آلاف[٧].

(١) المصدر السابق جـ٤ ص٢٦٩.
(٢) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص١١٢.
(٣) المصدر السابق جـ١٠ ص١٦٢.
(٤) المصدر السابق جـ١٠ ص١٩٤.
(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٤ ص١١٠.
(٦) المصدر السابق ذكره ونفس الصفحة.
(٧) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٢١هـ.
John Glub. Empire of the Arabs p. 343.

قلنا إن الرقيق كثر فى بغداد حتى كانت قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة تضم الألوف منهم، ولقد رغب الأسلام فى عتق العبيد. لذلك أقبل الناس على ذلك تقرباً إلى الله، فكانت ريطة ابنة أبى العباس تشترى رقيقاً للعتق[١] وأوصى الخليفة المعتصم قبل وفاته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه[٢] بل كان العبد يستطيع أن يشترى حريته، بدفع قدر من المال.

أثر الجوارى تأثيراً كبيراً فى ازدهار الفنون الجميلة فى بغداد، لأن الناس حرصوا على أن تجمع الجوارى بين الجمال الخلقى والجمال الفنى، فأخذوا يعلمون الجوارى فنون الرقص واللبس إلي غير ذلك من ضروب الفن، وسرعان ما لقن المغنون جواريهم ألحانهم، وطريقة غنائهم[٣].

وظهرت جوار أتقن كتابة الأشعار الرقيقة والعبارات اللطيفة تطريزاً على الثياب، وبعضهن أحب الأزهار وتغنى بها فقلدهن فيها الناس[٤].

وكان للجوارى فضل آخر، إذ أنهم ـ كما رأينا ـ من بلاد مختلفة روميات وتركيات وهنديات وصقليات وغير ذلك، وحاولن إدخال عاداتهن، وأدى ذلك إلى انقسام الناس إلى طائفتين، طائفة تتعصب للقديم، وأخرى تفضل الجديد الذى أدخل عليه نغمات رومية أو تركية أو هندية أو نحو ذلك[٥].

وقد تأثر الإنتاج الأدبى بكثرة الرقيق، فألف بعض الكتاب كتباً فى تجارة الرقيق، وذكر أوصاف الرقيق من كل جنس وحاول بعضهم وضع قواعد للجمال، كما تكلم بعضهم فى الألوان وحسنها.

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢١١.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص٢٢٣.
(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص٩٤.
(٤) المصدر السابق ذكره.
(٥) محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٧٠.

٢- الحياة العامة فى بغداد

(أ) القصور والدور فى بغداد فى العصر العباسى الأول:

عنى الخلفاء والأمراء العباسيون ومن يلوذ بهم من الوزراء والأباء والعلماء بتشييد القصور الفخمة فى مدينة السلام، وبلغت درجة من الاتساع جعلتها أشبه بمدن كبيرة، واشتملت على دور واسعة وقاعات ذات قباب وأروقة وبساتين[١].

وأول القصور التى شيدت فى بغداد قصر باب الذهب ذى القبة الخضراء وارتفاعها ثمانون ذراعاً، ويمكن منها الإشراف على نواحى بغداد المختلفة وما يحيط بها من حدائق وبساتين، وبدت كأنها «إكليل من نور قد تدلى على مدينة السلام[٢]» وعلى رأس القبة ظهر تمثال على صورة فارس فى يده رمح، وتحت القبة مجلس بمستوى سطح الأرض مساحته عشرة أمتار فى مثلها. وفى صدر إيوان عظيم على الطراز الفارسى، وكان يسمى قصر السلام[٣].

على أن المنصور شيد قصراً آخر على أطراف بغداد وسماه الخلد نسبة إلى حدائقه الواسعة[٤] ويقع على دجله تجاه خراسان وتأنق فى بنائه وتجميله، وبنيت حوله الدور حتى أصبح القصر وما حوله من عمائر يعرف بالخلد[٥] وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه مسامير من ذهب وفضة «كما تخللته العمد الكثيرة الفخمة، التى زينها المنصور بالرسوم البديعة، والصور الجميلة وكان مجلسه فى هذا القصر مفروشاً بالرخام يتوسطه قضبان ذهبية، وفرش بالبسط والديباج التى نقش عليها أبيات شعرية فى مدح الخليفة، وفى المجلس كراسي فخمة مرصعة باللؤلؤ معدة لجلوس كبار رجال الدولة الذين يحظون بالجلوس فى

(١) محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٧٥.

(٢) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام

John Glubb. The Empire of the Arabs p.243.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٢١.

(٤) Hitti: Hist. of the Arabs p. 293.

(٥) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ١ ص٧٥.

مجلس الخليفة، أما الخليفة نفسه فيجلس فى قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب[١].

حذا الخلفاء العباسيون حذو المنصور فى العناية بتشييد القصور الفخمة فشيد الخليفة المهدى قصراً بعيسى باذ شرقى بغداد، وسماه قصر السلامة[٢].

كما شيد الرشيد قصراً على دجلة تأنق فى تجميله وزينه بأبهى معالم الزينة وأقام فيه أساطين الرخام[٣] وقام الأمين بتوسيع قصر باب الذهب، بأن أضاف إليه مبانى جديدة. وكانت قصور الخلافة تكتنفها حدائق غناء تبلغ مساحتها ما يعادل مسيرة عدة ساعات، ويطل القصر على ميدان فسيح يعرض فيه الجنود الذين كانت ثكناتهم تطل على الضفة اليسرى للنهر[٤].

كذلك تعددت قصوراً أمراء البيت العباسى وتميزت بفخامة بنائها واستاعها مثال ذلك قصر عيسى بن على بن عبد الله بن العباس، وكان يقع على أحد فروع نهر دجله، وهو أول قصر بناه الهاشميون فى أيام المنصور ببغداد، ولا أدل على سعته من أن المنصور زار عيسى بن على فى قصره ومعه أربعة آلاف رجل، وكان عيسى بن على يقيم فيه ومعه عدة آلاف من عياله ومواليه[٥].

وكان لكل هاشمية من بنات البيت العباسى قصر منفرد، وأعظم هذه القصور قصر السيده زبيده، وكانت هذه القصور تضم من الخدم والغلمان أعداداً كبيرة مما يدل على حياة الترف والنعيم وجمال السلطان بالبهاء والإشراف[٦].

لم يقتصر تشييد القصور الفخمة على بنى العباس، لكن سار على منوالهم الوزراء وكبار رجال الدولة وأهل الثراء، فشيد البرامكة فى الجانب الشرقى من

(١) Hitti: Hist. of the Arabs p. 293.
(٢) الأصفهانى: الأغانى جـ٦ ص١٦٥.
(٣) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ١ ص٧٥.
(٤) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص٢٨٣-٢٨٤.
(٥) ياقوت: معجم البلدان جـ٧ ص١٠٧.
(٦) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص١٧٣.

بغداد قصوراً منيفة لهم بالشماسية فكان جعفر بن يحيى البرمكى يحب حياة اللهو لذا نصحه والده يحيى بن خالد بأن يتخذ لنفسه قصراً فى الرصافة يجمع فيه ندماءه وقيانه، ويقضى معهم أوقات فراغه بيعداً عن الأعين، لذلك شيد قصراً بالشماسية، وأحاطه ببساتين ذات أرباض خصبة مربعة وفرش به من أنواع الأشجار ما يأتى بأطيب الثمار، واتخذ لكل مقصورة فرش على مقدار أبنيتها، «وكان هذا القصر من أحسن القصور وأبهاها وأحب المواقع إليه وأشهاها لا طلاله على نهر دجله» وكماله فى النظر واشتماله بالروض والشجر، وزين هذا القصر بالرسوم والزخارف البديعة من الداخل والخارج، وعليه صور من الجص المجسم[1]، وقد حث يحيى بن خالد البرمكى ابنيه الفضل وجعفر على البناء فقال: لاشئ أبقى ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً، فشيد الفضل قصراً كذلك[2].

ولقد اتصلت عمائر البرامكة فى حى لا يخالطهم فيه أحد فى الشماسية بالرصافة، وبرز فيها قصر يحيى المعروف بقصر الطين، الذى أنفق فى بنائه أموالاً طائلة، وحى البرامكة هذا كان قريباً من قرية البردان، ولقد اشترى البرامكة الدور من أهل هذه القرية، ووهبوها لمن يلوذ بهم من أهل العلم والأدب[3].

ظل قصر جعفر بن يحيى ـ الذى سبقت الإشارة إليه ـ قائماً حتى قتل الأمين وولى المأمون الخلافة. فأقام المأمون بمرو فى بداية خلافته وعهد إلى الحسن بن سهل بحكم العراق نيابة عنه، ونزل فى القصر الجعفرى وأقام به، ولما قدم المأمون من خراسان، وأقام فى بغداد، بقى الحسن بن سهل مقيماً فى القصر المشار إليه وقام بتوسيعه وكتب أسم الحسن عليه وعرف بالقصر الحسنى بدلاً من الجعفرى. على أن الحسن بن سهل خصص هذا القصر لابنته بوران بعد زواجها بالمأمون، وأضاف إليه المأمون عدداً من المبانى المجاورة[4].

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص٢١٧.
(٢) ابن الساعى: نساء الخلفاء ص٩٠-٧١.
(٣) المصدر السابق ذكره.
(٤) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص٣٨٣-٣٨٤.

ويذكر ابن طيفور[1] أن الفضل والحسن ابنى سهل عنيا بالعمارة وكان لا ينزلان من المنازل إلا أطراف البلدان، وقد أوضح الحسن السبب فى ذلك فقال ـ الأطراف منازل الأشراف، ينتاولن ما يريدون بالقدرة، ويتناولن ما يريدون بالحاجة.

عنى شعب بغداد بتشييد الدور الفخمة خصوصاً أهل اليسار منهم وكانت تشتمل فى الغالب على طابقين ومبنية بالجص والآجر، وتحاط بأسوار، وأقاموا فيها أحواض ماء، زرعوا حولها بعض الأشجار والزروع، وأقاموا على الأحواض عمداً مزخرفة من الرخام، معقودة بقباب من فوقها، نقش عليها آيات قرآنية. أما العوام فكانت منازلهم بلا أسوار وتتكون فى الغالب من طابق واحد وتطل نوافذها على الشوارع مباشرة[2].

أخذ العباسيون عن الفرس العمل على تخفيف حرارة الشمس صيفاً فكانوا يغطون بيوتهم بطبقة من الطين. تجدد فى كل يوم، يقضى أهل المنزل وقت الظهيرة فيه ويرصف حول البيت كميات كبيرة من القصب[3].

كذلك يسر الخلفاء وصول المياه إلى القصور والدور فأنشأوا جداول فى بغداد تأخذ من دجله والفرات، وكانت الرحاب والشوارع تكنس وترش بأحسن نظام، ولم يكن يسمح قط بالقاء القاذورات على جانبى الشوارع والأزقة، وكانت الشوارع تضاء بالمصابيح ليلاً[4].

حرص أهل بغداد على تزيين مجالسهم بالفرش الفاخرة والأثاث وكانوا يكسون حيطان بيوتهم بالدبباج، ويعنون بفرش الأشجار والأزهار فى حدائق منازلهم، ويحليون الرياحين من بلاد الهند.

والخلاصة أن مدينة بغداد عظم فيها العمران فى العصر العباسى الأول حتى أن ضفتى دجلة أقيمت فيها القصور الفخمة والحدائق والمنتزهات البديعة والأسواق العامرة والحمامات الجميلة والمساجد الفخمة.

(١) فضائل بغداد: ص ٧٢

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨هـ.

(٣) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٣.

(٤) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٣-٣٨٤.

فاقت مواكب العباسيين مواكب الأمويين، وتميزت بالروعة والبهاء، وكان رجال الحرس يصحبون الخليفة المهدى فى موكبه مرتدين الأزياء الفخمة وبأيديهم الأسلحة، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يفضلان البساطة[1].

تجلت روعة مواكب الخلفاء العباسيين فى الجمع والأعياد، فكان موكب الخليفة يتقدمه الغلمان ـ أى رجال الحرس على اختلاف طبقاتهم ـ يحملون الأعلام والمقارع وآلات الموسيقى المحلاة بالذهب، ثم يليهم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة، ثم الخليفة ممتطيا جواداً ناصع البياض وبين يديه الأشراف وكبار رجال الدولة، ويأتى بعدهم بقية الغلمان، وكان الخليفة فى تلك المواكب يلبس القباء الأسود الذى يصل إلى الركبه، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتخذ عباءة سوداء ويلبس قلنسوة، وقد زينت بجوهرة ثمينة، وبيده قضيب رسول الله والخاتم. وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة. أما القباء فكان مفتوحاً عند الرقبة[2].

وتجلت مظاهر الخلفاء العباسيين الخاصة التى تدل على سيادتهم الروحية فى مواكبهم المتجهة من بغداد إلى الحجاز للحج، فحينما خرج المنصور فى إحدى السنوات للحج، اجتمع حشد كبير من أهل العراق وخراسان وغيرهم من المتجهين لأداء فريضة الحج فى باب الكوفة، وكل معه إبله ومؤونته ومتاعه، واجتمع هناك فريق من الجند لحراسة الحجيج فى حلهم وترحالهم، وسار الموكب وفى طليعته هو أوج تظلها قباب من الديباج، وفيها يقيم أمر الحج، ثم أذن للحج بالمسير، فضرب بوق إيذانا بركوب الخليفة، وجلس فى هودج وفى يده قضيب الخلافة، وفى الأخرى الخاتم، وعليه جبه وشى من فوقها بردة خضراء للرسول، وبصحبه جماعة من الأمراء ورجال الدولة، ومن خلفهم الإبل التى يركبها أهل بيته، ولهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السواد، فلما وقف

(١) سيد أمير على: مختصر العرب ص ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص٣٨٧.

الأمراء ورجال الدولة لوداع الخليفة، أوصاهم بالسهر على الرعية ثم نفخ فى البوق إيذانا بالنفير، وزحف الحجيج وفى مقدمتهم هودج الخليفة[١].

ويصف لنا ابن قتيبة[٢] أحد مواكب الرشيد فى رحلة الحج فيقول: لما أعتزم الرشيد الحج أمر بتمهيد طريق، الحج، وذلك بإزالة العوائق من الطريق، ولذلك حولت بعض القنوات ـ التى تعترض الطريق ـ عن مجراها، وأزيلت المرتفعات والآكام التى تعرقل الطريق، وردمت الخنادق، حتى صار الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة ممهداً وأمر بعمل محطات فى الطريق تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة أثنى عشر ميلاً، وفى كل محطة دار فرشت بالبسط الفاخرة، ونصبت لها جدار بالستور وسمكها بأكسية الخز الرفيع الملون، وعلى كل فرسخ من الطريق أقيمت قبة مفروشة، وقد أحاط بها الأشجار التى تظللها، وأقيمت الرواقات الكثيفة بها أنواع الطعام والشراب والفاكهة، فكان يمشى ثلاثة أميال ثم ينزل فى قبة أمامها رواق فينال راحته، ويصيب ما اشتهى من ألوان الطعام، واقفه فى طريقه الوزراء والقواد وأمراء الأجناد والأعلام والفقهاء والعساكر قد صاروا منه بمعزل يحاذونه فى طريقه إذا نزل وكان فى تواقفه يتابع أمور دولته، فيأتيه البريد بأخبار الأمصار والبلدان. ويصدر أوامره وتعليماته إلى بلدان دولته.

لم تقتصر مواكب الخلفاء على الخروج للصلاة أو الحج. وإنما اشتملت أيضاً رحلات الخليفة إلى الصيد. فحينما كان يخرج الخليفة المهدى للصيد يحاط بفرسان من الحرس متقلدين سيوفهم، يتبعهم عدد من الجند وطائفة من الغلمان[٣].

وكانت نساء الخلفاء يتنقلن فى مواكب خاصة بهن، فالخيزران ـ أم الهادى والرشيد ـ كانت تنقل فى موكب عظيم من الغلمان المزينة، والخيل عليها كسوة من الديباج والحلية الثقيلة من الفضه[٤].

(١) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٥٣-٥٥.
(٢) الإمامه والسياسة ص٢٢٣.
(٣) Gohn Glubb the Empire of the Arabs p. 264.
(٤) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٢٢.

أهتم الخلفاء العباسيون بالاحتفال بالأعياد فى شئ كثير من الإبهة، والأعياد نوعان دينية وتشمل عيد الفطر وعيد الأضحى وأعياد كان يحتفل بها أهل العراق قبل الإسلام.

كان الخلفاء يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى أحتفالاً دينياً فيؤدون صلاة العيد فى المسجد الجامع، ويؤمون الناس فى الصلاة، ويلقون خطبة العيد عليهم، وفى ليالى هذا العيد تضاء الأنوار فى المدينة، وفى العيد يركب الناس نهر دجله فى زوارق مطلية بأبهى الأصباغ والألوان، ويتلالأ قصر الخلافة بضوء باهر، ويلبيس الناس الطيالس السود، وتقام الؤلائم للناس على مراتبهم[1].

أما الأعياد التى كان يحتفل بها أهل العراق من قبل الإسلام مسيحية تماماً، وكان أهل بغداد مسيحيين ومسلمين يحتفلون فى الأديرة بأعياد القديسين، ويوم أحد الشعانين عيد كبير للعامة، ويبدو أنه كان عيداً قديماً من أعياد الأشجار، والوصائف فى هذا العيد يظهرن فى قصر الخلافة مرتديات أفخر أنواع الثياب، وفى أعناقهن صلبان من ذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون[2].

وفى يوم عيد الفصح، يقصد النصارى دير سمالو شرقى بغداد بباب الشماسية على نهر المهدى، ويشاركهم احتفالهم أهل اللهو من المسلمين حيث تحف به المتنزهات ويحتفل النصارى بأحد أعيادهم فى دير الثعالب بالجانب الغربى من بغداد، ويشاركهم المسلمون أيضاً الأحتفال بهذا العيد، ويشمل المكان الذى يقع فيه الدير البساتين التى تضم أنواع الأشجار والرياحين، وهذا العيد كان فى آخر سبت من أيلول. (سبتمبر)[3].

أما عيد دير أشمونى فكان في اليوم الثالث من تشرين الأول، (أكتوبر) وهو من الأيام العظيمة فى بغداد، يجتمع أهلها فيه وخصوصاً أهل الطرب واللهو،

(١) المصدر السابق.
(٢)متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٢٧٨.
(٣) الشابستى: الديارات ص٩.
(٤) المصدر السابق ص١٦.

ويتنافسون فيما يظهرونه هناك من زيهم، ويباهون بما يعدونه لقصفهم، ويعمرون شطه وديره وحاناته ويضرب لذوى البسطة منهم الخيم والفساطيط، ويعزف القيان ويتمتع الناس هناك باللهو والطرب. ويكثر الغناء[1].

وأعياد النصارى ببغداد يقسمونها على أعياد معروفة فالأحد الأول منه عيد دير العاصية، وهو على ميل من سمالو والأحد الثانى دير الزريقية والأحد الثالث دير الزندورد والأحد الرابع دير درمالس، هذا وعيده أحسن عيد، يجتمع نصارى بغداد إليه، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والطرب إلا تبعهم، ويقيم الناس فيه الأيام الطوال[2].

وكان هناك مواسم أخرى يحتفل بها العباسيون منها النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس، وأحد مواسمهم القديمة، وقد نهى العرب أهل فارس بعد الفتح ـ عن الاحتفال بهذا العيد، غير أن العباسيين فى عصرهم الأول أباحوا الاحتفال به[3]، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا، والخليفة يوزع على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر ٣١).

ويأتى بعد عيد النوروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً عيد المهرجان ويعتبر أول أيام الشتاء، وظل إلى جانب النوروز أكبر الأعياد، وكان الناس يتهادون فيه، وتخلع فى هذا العيد على القواد وكبار رجال الدولة ملابس الشتاء، وكان العامة يغيرون فيه الفرش والثياب، وكثيراً من الملابس، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه السلطان[4].

(جـ) الموسيقى والغناء والمجالس الاجتماعية

كانت مجالس الخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة تضم الندماء والمغنين، فالندماء يقصون النوادر الأدبيه ويروون الأشعار، أما المغنون

(١) الديارات للشابستى ص٣٠.
(٢) المصدر السابق ص٣.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية ص٢٨٧.
(٤) الجاحظ: التاج ص ١٤٦.

فيؤدون أغانيهم. وقد يكون النديم مغنياً فى نفس الوقت مثل إسحاق بن إبراهيم الموصلى.

وصناعة الغناء هى تلحين الأشعار والموزونة بتقطيع الأصوات علي نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعة، فيكون نغمه ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات.

انتشر الغناء فى بغداد فى العصر العباسى الأول، وأقبل أهل بغداد عليه ـ على اختلاف مستوياتهم ـ بشغف شديد، وزاد من شغف الناس به، إقبال الكثير من الطرب واللهو من بلاد الإسلام على بغداد. وإقامتهم بها، وعرض فنهم فيها، وكان بعض الخلفاء فى العصر العباسى الأول يتحرج من الظهور للمغنين، فلما ولى المنصور الخلافة شغل بإقرار الأمور فى دولته، والقضاء على أعدائها، لذلك لم يكن له فى اللهو والطرب مجال، ولم ير فى دار المنصور لهو ولا غناء، ولم يظهر لنديم قط. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا، وبين الستارة والندماء مثلها[1]. أما المهدى فكان فى أول الأمر لا يحتجب عن الندماء، تشبهها بأبيه المنصور، وظل على ذلك نحواً من سنة، ثم ظهر لهم فأشار عليه أحد خاصته بأن يحتجب عنهم تشبها بأبيه فرفض وقال. إنما اللذة فى مشاهدة السرور، وفى الدنو ممن سرنى. وكان محباً للنمادمة لا يترك جليسه إلا عن ضرورة[2] ومن أشهر ندمائه مروان ابن أبى حفصة، كان يأتى باب المهدى على برذون قيمته عشرة آلاف دينار والسرج واللجام المزينين، ولباسه الخز والوشى ورائحة المسك والطيب تفوح منه[3].

والحقيقة أن المهدى شجع أهل بغداد على الإقبال على الغناء واللهو، إلا أنه رفض أن يتجاوزوا باللهو حدود ما أمر به الله، ولكن الأمور سارت على غير

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٣.
(٢) المصدر السابق ص ٣٤-٣٥.
(٣) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص٧٧.

مارسمه، فقد شاع شعر بشار بن برد فى عهد المهدى بما فيه من مجون وعبث وغزل مكشوف حتى ضج رجال بغداد من شعره، وشكوا إلى المهدى لأنهم خافوا على نسائهم وبناتهم، فتدخل المهدى ونهى بشار عن الغزل بالنساء[1].

وكان الهادى يستمع إلى الغناء ويجزل عليه العطاء[2]. أما الرشيد فقد شغف بمجالس الطرب والغناء، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنيين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم بأجزل صلة، ويرفعه إلا أعلى مرتبه، وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار[2] وكثيراً ما يتلثم فيحضر مجالس العلماء وهو لا يعرف، ولقد قسم الأيام والليالى قليلة للوزراء يذاكرهم أمور الناس، ويشاورهم فى أمور الدولة الداخلية والخارجية، وليلة الكتاب يتفقد أعمالهم، ويرتب الناس ما ظهر من صلاح أحوال المسلمين وليلة للقواد أمراء الأجناد يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الاخبار، ويذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه ـ وكان من أعلمهم ـ وليلة للقراء والعباد يتصفح وجوههم. ويتعظ برؤيتهم، ويستمع لمواعظهم، ويرفق قلبه لكلامهم، وليلة لاهل بيته يأنس بهم وباشرهم، وليلة يخلو فيها بنفسه لا يعلم أحد قرب أو بعد ما يصنع، ولا يشك أحد أنه يخلو فيها بربه يسأله خلاص نفسه وفكاك رقه[3].

وجعل الرشيد للمغنين مراتب وطبقات، فكان إبراهيم الموصلى وابن جامع وزلزل فى الطبقة الأولى، والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال، والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والطنابير وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم، وإذا أجاد أحد المغنين والموسيقيين الأداء أمر الخليفة بترقيته إلى المرتبة التى تعلو مرتبته فرقى الرشيد برصوما الزامر من الطبقة الثانية إلى الطبقة

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص١١١.
(٢) الجاحظ: التاج ص٣٥.
(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ١ ص٢٩٧.
(٤) الجاحظ: التاج ص٤١.

الأولى بعد أن أطرب الرشيد[٤].

ومن أبرز ندماء الرشيد الشاعر أبو العتاهيه، كان لا يفارق الرشيد فى سفر ولا حضر، إلا فى طريق الحج، وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات، وقد أعجب بشعره اللطيف المعانى السهل الألفاظ، القليل التكلف، وكثر شعره فى الزهد والأمثال[١].

ولا أوافق الأستاذ أحمد أمين فيما ذهب إليه[٢] من أن أزدياد ونفوذ الفرس فى عهد الرشيد، وما عرف عنهم من ميل إلى اللهو و السرور، نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث، لأن الغناء كان منتشرًا قبل عهد الرشيد فى بغداد، وفى دمشق إبان الحكم الأموى[٣]، حقيقة بلغ الترف والنعيم فى بغداد فى عهد الرشيد أقصاه، إلا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى ما بلغته الدولة العباسية من سعة وغنى واستقرار، ومساهمة عناصر السكان على اختلاف أجناسهم فى ازدهار الحياة العامه[٤].

وكان الأمين لا يحتجب عن الندماء، ويجزل عليهم العطايا، ويقضى أجل أوقاته فى الاستمتاع بضروب اللهو، وعلى الرغم من أن أخباره وضع أكثرها فى عهد المأمون للإساءة إليه، والحط من قدره، فإننا لا نستطيع أن ننكر ميله إلى اللهو، يؤيد ذلك ما ذكره الطبرى[٥] من أن الأمين لما ولى الخلافة وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين، وضمهم إليه، وأجرى لهم الأرزاق، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواضع لهوه وخلوته بقصر الخلد وقصور اللهو، واقتنى الوحوش والسباع والطيور وأنفق أموالاً طائلة فى بناء سفن على شكل بعض الحيوانات، كالأسد والفيل والعقاب وغير ذلك، وقسم ما فى بيوت الأموال من الجوهر على جلسائه ومحدثيه[٦].

(١) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص٦٣.

(٢) ضحى الإسلام جـ١ ص١١١.

(٣) انظر: الإدارة المركزية للدولة الأموية ١٢٥.

(٤) Gohn Glubb : The Empire of the Arabs P. 279.

(٥) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٨هـ.

(٦) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٨.

كانت شخصية المأمون تخالف شخصية الأمين، فقد عرف المأمون منذ حداثته بالجد والحرص على طلب العلم والتفقه فيه حتى أصبح حجة فى المسائل العلمية والفلسفية، ولما قدم بغداد ظل بها ما يقرب من عشرين شهراً لا يستمع إلى للغناء، ثم سمعه من ولاء ستار متشبها بالرشيد، واستمر كذلك سبع سنين ثم ظهر للمغنين والملهين[1].

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أشهر المغنين فى بغداد فى العصر العباسى الأول. وذكرنا أن إبراهيم الموصل كان من المقربين إلى الرشيد لبراعته فى الغناء، وأصله فارسى، تعلم الغناء فى الموصلى، تم صار إلى الرى وتعلم فيها أيضاً، وتعلم الغناء العربى والفارسى، وأعجب به كثير من الناس، والتفوا حوله حتى أن الرشيد قال: ما أعرف أحداً أكثر أصدقاء من إبراهيم[2] يصنع فيحسن، وكان بمنزله خطيب أو شاعر أو كاتب يتقن مهنته، فضلاً عن أنه كان شاعراً وأديباً حتى قيل إن إبراهيم بستان فيه جميع الثمار والرياحين[3].

ولم يكن الناس يعلمون الجوارى الغناء، وأول من علهم إبراهيم فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن، وكان يضع اللحن، ويكرره لتستوى له أجزاؤه، وجواريه يضربن عليه، صنع إبراهيم الموصلى تسعمائة لحن، تفوق فى ثلاثمائة منها على جميع الموسيقيين المعاصرين والسابقين عليه[4].

لما ولى الرشيد الخلافة وجلس بعد فراغه من إحكام الأمور، دخل عليه المغنون، وأول من غناه إبراهيم الموصلى، فشقف به، وكان الرشيد يعقد مجالس المغنيين، ويطلب منهم أن يبرز كل واحد منهم ألحانه، وفضل إبراهيم الموصلى على غيره، وبلغ من محبته لأغانيه، أنه كان يذهب إليه فى منزله، ويطلب منه أن يغنيه من ألحانه[5] وكان لكل واحد من المغنيين مذهب فى الألحان التى

(١) الجاحظ: التاج ص٤٣.
(٢) الأصفهانى: الأغانى جـ٥ ص١٦٩.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٤ ص١٠٨.
(٤) الأصفهانى: الأغانى جـ٥ ص١٨٧.
(٥) المصدر السابق جـ٥ ص٢٣٠.

يختارها لأغانيه، ولم يكن أحد يتصرف فى مذاهب الأغانى مثل إبراهيم الموصلى ابنه إسحاق وترك إبراهيم الموصلى بعد وفاته ثروة قدرت بأربعة وعشرين ألف ألف درهم سوى أرزاقه الجارية وهى عشرة آلاف درهم وسوى غلات ضياعه[1].

كذلك اشتهر فى الغناء فى بغداد إسحاق بن إبراهيم الموصلى والرشيد شغف به لأنه كان على جانب كبير من المقدرة العلمية والأدبية والرواية، وكان شاعراً مجيداً، وعلى ذلك نقول إنه لم يكن مغنياً بارعاً فحسب بل عالماً وأديباً وشاعراً. ويذكر صاحب كتاب الأغانى أن إسحق لم يكن له نظير فى الغناء، فإنه لحق من مضى فيه، وسبق من بقى، فهو إمام أهل صناعته جميعا ورأسهم ومعلمهم. يعرف ذلك عنه الخاص والعام، وكان إسحاق الموصلى يحدث الرشيد بأحاديث القيان والمغنين تارة وبأخبار العرب وأيامها تارة أخرى، ويتفوق على غيره من المغنين فى مجالس الغناء[2].

كان إسحاق رغم تفوقه فى الغناء لا يحب أن يوصف بأنه مغنى وبلغ من تقدير الخليفة المأمون له أن قال. لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء فإنه أولى به وأحق، وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس، وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرقه، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله، ولا تعلق به أحد بعده، وصنف كتاباً فى الألحان رتب فيه جميع طرقه والأجناس، وجمع الغناء القديم وألحق به الغناء الحديث إلى آخر أيامه بما فى ذلك أقوال العلماء الأقدمين من اليونان مثل أقليدس وغيره من أهل العلم بالموسيقى، وتفهم ما أفنوا فى بحثه الأيام والليالى. ومن أقوال إسحاق فى الغناء: إن الإيقاع من الغناء بمنزلة العروض من أشعر، «والمغنى الحاذق من تمكن من أنفاسه، ولطف فى اختلاسه وتفرغ فى أجناسه[3].

وكان الخليفة الواثق من أكثر العلماء تقديرا لإسحاق، وكان إذا صنع شيئًا من

(١) المصدر السابق جـ٥ ص١٦٤.

(٢) الأصفهانى: الأغانى جـ٥ ص ٢٦٧-٢٦٩.

(٣) ابن خرداذبه: مختارات من كتاب اللهو والملاهى ص٥٥.

الألحان عرضه على إسحق فيصلحه، وقال إسحاق: ما وصلنى أحد بمثل ما وصلنى به الواثق[١]، وبلغ من تقدير الواثق لإسحاق أنه قال: ما عنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد فى ملكى[٢] وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء، وصنع مائة لحن، وهو أحذق من غنى بضرب العود[٣].

ومما لا شك فيه أن إسحاق الموصلى لم يبلغ ما بلغه من إتقان للغناء إلا بفضل دراسته لهذا الفن دراسة واعية فقد تتلمذ على أبيه، وعلى منصور زلزل ـ المغنى المشهور ـ واتفق على تعليمه مائة ألف درهم[٤]. ونبغ فى الغناء ـ كما ذكرنا ـ، ومجالس المنادمة فكان «لا يمل جليسه مجلسه، ولا تمج الآذان حديثه، إن حدثك الهاك وإن ناظرك أفادك، وإن غناك أطربك».

تتلمذ فى مدرسة إبراهيم وإسحاق الموصلى الموسيقية كثير من هواة الغناء، نخص بالذكر منهم علويه، كان مغنياً حاذقاً صانعاً متقناً، برع فى الغناء، وغنى للأمين ، وعرفت ألحانه بالجودة وحسن السبك[٥].

وكذلك نبغ محمد الرف، وكان إسحاق الموصلى يرفع من قدره ويبرزه فى مجالس الخلفاء[٦].

كذلك حرص كبار رجال الدولة على عقد الغناء، وتقريب المغنين لهم أسوة بالخلفاء، فكان جعفر بن يحيى البرمكى ـ وزير الرشيد ـ له ظرف وأدب غناء وضرب بالطبل، وكان يأخذ بأجزال حظ من كل فن من الأدب، ويأمر الجوارى بالمثول بين يديه فى الغناء، ويغنى فى مجالس لهوه وطربه[٧]، وجعفر من ندماء

(١) المصدر السابق جـ٩ ص٢٨٢.
(٢) المصدر السابق جـ٥ ص٢٨١.
(٣) المصدر السابق جـ٩ ص٢٩٣.
(٤) المصدر السابق جـ٥ ص٢٦٩.
(٥) الأصفهانى: الأغانى جـ١٤ ص١٧٨.
(٦) ابن خرداذبة: مختارات من كتاب اللهو والملاهى ص٥٥.
(٧) الأصفهانى: الأغانى جـ٥ ص٤٠٧.

الرشيد، وكان أبوه ينهاه عن منادمته، ويأمره بترك الأنس به، لأنه كان لا يأمن أن ترجع العاقبة عليه منه[١].

بلغ الشغف بالغناء فى بغداد حداً جعل العمل به لا يقتصر على عامة الناس بل تجاوزه إلى أمراء البيت العباسى، وكان أولهم وأتقنهم صنعة فى الغناء إبراهيم ابن المهدى، فإنه كان لا يستتر منه، وفى أول أمره كان يغنى من وراء ستار إلا إذا جلس مع الرشيد والأمين من بعده فى خلوه، ولما أمنه المأمون ظهر بالغناء، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات وأطبعهم بالغناء وأحسنهم صوتاً، وهو من المعدودين فى طيب الصوت خاصة ، وأصبح الناس ينقسمون فى الغناء طائفتين، فمن كان منهم على مذهب إسحاق وأصحابه يفضل الغناء القديم ويعظم الإقدام عليه[٢] ومن اعتز بمذهب إبراهيم بن المهدى مثل مخارق إنما يغنى الغناء الجديد[٣]. وكان أديباً شاعراً راوية للشعر وأيام العرب فصيحاً، فكان يغنى طرباً لا تكسبا ويغنى لنفسه لا للناس. وقد شغف به الناس فى بغداد حتى قال بعضهم: لم ير فى جاهلية ولا إسلام أحسن غناءاً من إبراهيم بن المهدى [٤] وكان يحتفظ بدفاتر الغناء[٥] وتجلت مقدرة إبراهيم فى مجالس الخلفاء، ففى مجلس المأمون والمعتصم يغنى المغنون، ويغنى هو، فإذا ابتدأ لم يبق من الغلمان وخدم القصر وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار أحد إلا ترك ما فى يده، وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مصغياً إليه لاهياً عما كان فيه ما دام يغنى حتى إذا أمسك وتغنى غيره رجعوا إلى التشاغل بما كانوا فيه[٦].

وكان صالح بن الرشيد يحتفظ بدفاتر للغناء، وبطرحها على جواريه وغلمانه

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٢هـ.
(٢) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص١١١.
(٣) الأصفهانى: الأغانى جـ٦ ص١٧٥.
(٤) المصدر السابق جـ١١ ص١٢٦.
(٥) المصدر السابق جـ١١ ص١٤٠.
(٦) المصدر السابق جـ١١ ص١٦٢.

لغناء ما يستجيده منها[1] أما أبو عيسى الرشيد فكان من أحسن الناس غناء وقيل انتهى جمال ولد الخلافة إلى أولاد الرشيد، ومن أولاد الرشيد إلى محمد وأبى عيسى وكان أبو عيسى إذا عزم على الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما يجلسون للخلفاء[2]. وكان عبد الله بن موسى الهادى من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناءاً[3].

واشتهر فى الغناء بعض أميرات البيت العباسى مثل عليه بنت المهدى، وأمها أم ولد مغنية. وكانت من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد وتلحنه أحسن تلحين، وبلغ من ولعها بالشعر أنها كانت تراسل من تختصه بالأشعار[4].

كذلك ظهر مغنون من كبار البيوتات فى بغداد، فقد كان عبد الله بن العباس ابن الفضل بن الربيع مغنياً ماهراً وماجناً يعيش عيشة لهو وخلاعة[5].

وعلى الرغم من انتشار الغناء فى بغداد فى مجالس الخلفاء والأمراء ورجال الدولة وسائر الأهلين إلا أنه لقى معارضة من العناصر المحافظة وخصوصاً أصحاب الطيالس من رجال الدين، بل إن الخلفاء المحبين للهو، كرهوا أن ينشأ أبناؤهم على محبته، فالخليفة المهدى عاقب ابن جامع والحرانى ـ المغنين ـ لأنقطاعهما إلى ولى عهده الهادى، ولما ولى هذا الخليفة استدعى إليه ابن جامع، وضعه إلى مجلس منادمته[6].

وظهر ندماء انقطعوا لبعض الأسر الكبيرة مثل الفضل الرقاشى الذى اقتصر على انشاد البرامكة الشعر دون غيرهم، وكانوا يفضلونه على سائر الشعراء، ويروون أولادهم أشعاره، ويدونونها تعصباً له، وحفظاً لخدمته، وتنويها بإسمه،

(١) المصدر السابق جـ٧ ص١٠٦.
(٢) المصدر السابق جـ١٠ ص١٨٧.
(٣) المصدر السابق جـ١٠ ص١٩٤.
(٤) المصدر السابق جـ١١ ص١٦٢.
(٥) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص١٩٤.
(٦) الأصفهانى: الأغانى جـ٦ ص٢٩٢.

وتشجيعاً له على الاستمرار فى نشاطه فحفظ ذلك لهم، فلما نكبوا صار إليهم فى حبسهم، وأقام معهم بقية أيامهم ينشدهم ويسامرهم، ثم رثاهم فأكثر فى الإشادة بمحاسنهم وجودهم ومآثرهم، فأذاع منها ما كان مستوراً[1].

ولقد رأينا أن الجوارى فى بغداد اشتغلن بالغناء، وبرز منهن كثيرات مثل عاتكة، وبلغ من شهرتها وحسن غنائها أن المغنيين فى مجلس الرشيد كانوا يغنون من ألحانها، وكانت عاتكة تتقن الضرب بالعود، ومن أحسن المغنيات غناءاً وأروجهم، وكان مخارق مملوكاً لعاتكة، وهى علمته للغناء، ودربته على استعمال العود ثم باعته، فانتقل من رجل إلى رجل حتى صار إلى الرشيد وكان حسن الأداء طيب الصوت[2].

وكانت متيم صفراء مولدة من مولدات البصرة، وبها نشأت وتأدبت وغنت، وأخذت عن إسحاق الموصلى وعن أبيه وعن المغنية المشهورة بزل، وبلغ من شهرتها بالغناء أن الخليفة المأمون كان يبعث إليها فتجيئه وتغنيه، فلما انتقل الخليفة المعتصم إلى سامرا أرسل إليها، وأنزلها فى دار سميت الدمشقى، ولكنها كانت ترفض الأبتعاد عن بغداد طويلاً، فكانت تستأذنه فى الذهاب إلى بغداد فيأذن لها، وتقضى بمدينة السلام بعض الوقت ثم تعود إلى سامرا[3].

من هذا نرى أن الموسيقى والغناء انتشرا فى بغداد انتشاراً واسعاً وأقبل كثير من الناس عليهما من طبقات مختلفة حتى أن شعر الشعراء كان إلا النزر اليسير، داعراً، ولم يقاس أهل بغداد من البؤس والشقاء إلا إبان الفتنة بين الأمين[4] والمأمون.

اهتم الخلفاء العباسيون بعقد مجالس الغناء بمظاهر البذخ والروعة فيتخذ

(١) المصدر السابق جـ٦ ص٢٤٥.
(٢) المصدر السابق جـ٦ ص٢٦٠-٢٦٢.
(٣) الأصفهانى: الأغانى جـ٧ ص٢٩٢-٢٩٣.
(٤) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص٣٨٧.

الخليفة مجلسه فى صدر الإيوان فى القصر وبين يديه الحرس فى أثواب زاهية، ويقف حوله عن يمين ويسار كبار رجال الدولة وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية فى بغداد يشتركن فى حفلات موسيقية خاصة، وأحياناً يحضر نساء قصر الخلافة مجلس غناء الخليفة. وفى هذه الحالة يجلسن خلف الستارة[١] وكان مجلس الرشيد فى بعض الأحيان يضم ألف جارية فى أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب، يتخذن الحلى والجواهر[٢].

كذلك عنى كبار رجال الدولة وسائر أفراد الشعب بعقد مجالس للطرب والغناء، وبعض هذه المجالس يعقد فى الحدائق والبساتين يجتمع فيها أهل الطرب، ويقضى الناس وقتاً ممتعاً: بل كان الملاحون يغنون فى الزلالات، وأعجب الرشيد بغنائهم، وأمر الشعراء بآن يقولوا شعراً يغنيه هؤلاء الملاحون[٣] وبالجملة كانت أيام الرشيد من حسنها كأنها أعراس. وكان الأمين يعقد مجالس غنائه فى قبة اتخذ لها فراشاً مبطناً بأبدع الحرير والديباج المنسوج بالذهب[٤].

قلنا إن حياة الناس فى بغداد فى الفتنة التى حدثت بين الأمين والمأمون قد عمها البؤس والشقاء حتى خربت الديار، وعفت الآثار، وارتفعت الأسعار، وقاتل الأخ أخاه والإبن أباه وهدمت المنازل، وأحرقت الديار وانتهبت الأموال، فلما عادت السكينة، وعم الأمن والسلام ربوع بغداد، شعر الناس أنهم فى حاجة أن يعوضوا ما فقدوا، فلهوا، وأفرطوا فى اللهو والطرب[٥].

وقد لعب المال دوراً كبيراً فى ازدهار الفنون فى بغداد، فتنوعت مصادر الثروة، والمال خير وسيلة لازدهار اللهو ويسير جنبا إلى جنب مع الترف، فيكون

(١) الأصفهانى: الأغانى جـ٦ ص٣١٠.
(٢) المصدر السابق جـ١٠ ص١٦٢.
(٣) المصدر السابق جـ٤ ص١٠٢.
(٤) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٣٠٩.
(٥) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٨هـ.

الترف حيث يكون المال وكل نابغ فى فن أو مذهب يذهب إلى بغداد لعرض شعره أو غنائه، فقصدها أناس كثيرون من بلدان مختلفة من بلاد الفرس وبلاد الهند والروم وغيرهم. ومن هؤلاء كثيرون تبغوا فى مجالات مختلفة فى اللهو والغناء، ووجدوا الحياة فى بغداد حقلاً خصبًا تبرز فيه مواهبهم، ويقدرون فنهم أحسن تقدير، فعرضت كل أمة فنها وأنواع حضارتها فكان فى ذلك معرض عام، وأخذ أهل بغداد من كل لون من ألوان الفنون بحظ وافر، وأخذت البلاد الأخرى تقتبس الفن من بغداد[1].

على أن ما تحدثنا عنه من شغف أهل بغداد باللهو والمجون لا يمنع من ابراز حقيقة، أن هذا اللهو لم يكن إلا جانباً من حياة الناس فقط المعقدة حقيقة كثر الغناء والطرب فى بغداد لكن الناس جميعا لم يكن كلهم يحيون هذه الحياة، ولا يغيب عن أذهاننا أن الأخبار التى أوردها صاحب كتاب الأغانى فى كتابه لا تخلو من مبالغة ظاهرة ليكسب من وراء أخباره مالاً أو جاهاً أو تشويقاً لسامعيه، . وكان هناك تفاوت كبير بين طبقات الناس، لذلك انقسم السكان فى بغداد إلى فريقين، فرقة يتمثل فيها نزعة اللهو، وفرقة تفضل الزهد، ويمثل الأولى أبو نواس، والثانية أبو العتاهية، ذلك أن قومًا يئسوا من الغنى ورأو أن نفوسهم لا تطاوعهم فى القرب من ذوى الجاه، أو حاولوا ذلك وفشلوا، فلجأوا إلى القناعة يروضون أنفسهم عليها، وكثيرون زهدوا تديناً[2].

على كل حال أدى الإفراط فى اللهو إلى ظهور عناصر مفسدة للإخلاق فى بغداد، ذلك أن فساق الحربية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس إيذاءاً شديداً، وأظهروا الفسق وقطع الطريق، وأخذوا النساء والغلمان علانية من الطرق فكانوا يخطفون الطفل من أبيه ولا يردوه إليه إلا إذا أدى لهم كثيراً من المال، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى ويرهبون أهلها، ويأخذون ما استطاعوا من ممتلكاتهم لا سلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك، لأن أمير بغداد، كان يعتز بهم،

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص١٢٥.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص١٢٥-١٢٦.

وكانوا بطانته، ولا يمنعهم من فسق يرتكبونه، وكان الناس منهم فى بلاء عظيم، وازداد نهبهم لقرى بغداد.

ولم يستجب أمير بغداد لنداء أهلها بحمايتهم، وظلت الفوضى سائدة ببغداد لذلك لم يكن هناك بد من أن يعتمد أهل بغداد على أنفسهم فى حماية ممتلكاتهم ونسائهم وأبنائهم: فقام صلحاء كل ربض وكل درب. وتدارسوا وسائل القضاء على المفسدين، ونهض نفر منهم يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وتزعم هذه الحركة سهل بن سلامة الأنصارى الذى علق مصحفاً فى عنقه، واجتمع حوله الناس، وبايعوه على ما اعتزم عليه «وطاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها يتصدى للشطار، ويقاتل المفسدين[1].

نخرج من ذلك إلى القول بأن الحياة فى بغداد لم تكن كلها مجون ولهو كما يصور ذلك بعض الأدباء، بل كان اللهو والطرب جانباً من جوانب الحياة الإجتماعية، وعرف طريقه فى قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة وفى بيوت تجار الرقيق والقيان وغير ذلك «وكره فريق من أهل بغداد هذا النوع من الحياة واستنكروه، وعكفوا على المساجد يقضون فيها أوقات فراغهم حيث يستمعون إلى الفقهاء ورجال العلم، ويستفيدون منهم، وفريق من الناس زهد فى الدنيا والحياة المترفه التى نعم بها الكثير من البغداديين، ولا يغيب عن الأذهان أن طبقة رجال الدين والأدب كانت تأتى فى المحل الأول من الأهمية والإعتبار قبل طبقة المغنيين والموسيقيين، ومن ثم نظر الناس إلى رجال الدين ونظرة الأدب تختلف كل الإختلاف عن نظرتهم إلى أهل اللهو والطرب، بل ترى بعض الفقهاء يتجنب الحديث مع الموسقيين والمغنيين، ويتحرج منهم ، إسحاق الموصلى يكره أن يوصف بأنه مغنى.

وبهذه المناسبة نذكر أن بعض الكتاب قد أفرط فى وصف حياة الرشيد كانت

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠١هـ.

فى معظمها لهو وطرب، وهؤلاء الكتاب اعتمدوا فيما كتبوه على كتب الأدب التى لا تخلو من مبالغة ـ كما ـ ذكرنا ـ ذلك أن الرشيد كان يغزو سنة ويحج سنة فى الغالب، ويقود الجيوش للقضاء على الفتن الداخلية وكان رجلاً عملياً فى حياته، وأبعد ما يكون عن الأستهتار، بدليل أنه لم يقبل أن يبقى مسلوب السلطة، وأمور الدولة فى أيدى البرامكة، لذا تراه ينكل بهم ويسترد سلطانه، ولو كان ـ كما صوره بعض الكتاب ـ لعكف على اللهو والطرق ـ تاركاً أمور الدولة فى أيدى البرامكة. ولم تكن حياة اللهو والطرب سوى جانباً من حياة الرشيد، ولم تحل بينه وبين تأدية مهماته وأعبائه.

على كل حال تطوع بعض الرجال فى بغداد للقضاء على المفاسد، فأمروا الناس بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فسالم بن سالم البلخى لم يخش فى دعوته أحد، حتى أنه أنكر على الرشيد وشنع عليه، فحبسه وقيده[1] كذلك نقم أسد ابن يزيد على الأمين لعبه وتهاونه فى أمر الرعية، وارتكابه للصيد وغيره فى هذا الوقت[2].

* * *

وينبغى أن نشير هنا إلى أن المنصور ـ مؤسس الدولة العباسية لم يهتم بمجالس اللهو والطرب لأن شغله الشاغل انحصر فى توطيد الأمن والنظام فى ربوع دولته، فكان فى أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والولايات والعزل والنظر فى مصالح العامه، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر، فإذا صلاه جلس لأهل بيته، ونظر فى مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر فى الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام فى فراشه إلى الثلث الأخير، ليقوم فى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١ ص١٥٦.
(٢) المصدر السابق جـ١٠ ص٢٣٥.

وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ثم يخرج فيصلى بالناس، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه[١].

أما الرشيد فقد اجتمع له من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده، كان أبو يوسف قاضيه، والبرامكة وزراءه، وحاجبه الفضل بن الربيع من أنبه الناس وأشدهم تعاظماً، وشاعره مروان بن أبى حفصة، ونديمه عمر بن العباس، ومغنيه إبراهيم الموصلى، ومضحكه ابن أبى مريم، وزامره برصوما، وزوجته أم جعفر ـ زبيده ـ وكانت أرغب الناس فى كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف[٢].

أما الأمين فكان ينفق على مجالسه أموالاً جزيله، وتفرش بأنواع الحرير، والآنية من ذهب وفضة، كان كثير الأدب فضيحاً يقول الشعر، ويعطى عليه الجوائز الكثيره، وكان شاعره أبو نواس، وقد قال فيه مدائح حسانًا، وقد وجده مسجوناً فى حبس الرشيد، فأطلقه، وأطلق له مالاً، وجعله من ندمائه[٣].

كان الناس يقضون أوقات فراغهم فى بغداد فى الاستماع إلى الحكايات القصيره، والنوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة والذكاء وذلك فى المجالس الخاصة، أما المجالس العامه فكان يجتمع فيها كثير من الناس يستمعون إلى القصاص يروى لهم الحكايات الطوال[٤].

ومن أحسن من حدث الرشيد، ابن عطاء الليث، صاحب أخبار وأسمار فضلاً عن علمه بالأنساب، وكان من أظرف الناس وأحلاهم[٥].

ومن جلساء الرشيد ابن أبى مريم وكان مضحكاً محدثاً فكيهاً، حتى أن الرشيد

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١ ص٣٢٥.
(٢) المصدر السابق جـ١٠ ص٢١٧.
(٣) المصدر السابق جـ١٠ ص٢٤٢.
(٤) متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٢٤٦.
(٥) الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص٣٤٤.

فضل أن يقضى معه الكثير من الأوقات للاستمتاع بحديثه، لأنه جمع المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف وأحوال المجان، وبلغ من إعجاب الرشيد به أن أنزله فى بعض غرف قصره[١].

ومن أبرز ندماء الرشيد الأصمعى وهو من أعلم الناس بالنوادر والأخبار وأيام الناس، مشهور له بصدق الرواية، أقام فى حياته فى الباديه أياماً طوالاً، يستطلع فيها عادات العرب ويستكشف أخبارهم، ويستنطق آثارهم، وكان يسوق أخباره فى كلام رشيق بليغ حتى فاق غيره فى النوادر[٢] أما أبو نواس فكان من محدثى الرشيد ومسامريه، له كلام طريف فى المجون والخلاعة، وحوادث تدل على خفة روحه[٣].

وكان أبو دلامه صاحب نوادر وحكايات وأدب ونظم، وهو من أصل حبشى، نبغ فى أيام بنى العباس، وانقطع إلى المنصور والمهدى وغيرهما وكانوا يقدمونه ويفضلونه، ويستطيبون نوادره، وكان يضحك المنصور وينشده الأشعار ويمدحه، ومما يجدر ذكره أن المهدى خرج وعلى بن سليمان للصيد، ومعهما أبو دلامه فرأى المهدى ظبياً فأصابه، ورمى على بن سليمان ظبيا فأخطاه، و أصاب كلباً، فقال أبو دلامه شعرا:

قد رمى المهدى ظبيا　　شك بالسهم فؤاده

وعلى بن سليمـــان　　رمى كلبا فصاده

فهنيئا لكما كل امرئ　　يأكـــل زاده.[٤]

فأمر له المهدى بثلاثين ألف درهم، وتوفى أبو دلامه سنة ١٦١هـ[٥] ومن

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٢هـ.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص٣١٤.
(٣) المصدر السابق جـ١ ص٣٧٣.
(٤) مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٥.
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص٢٤٣.

وسائل التسلية فى بغداد لعب الشطرنج. وقد أدخلها الرشيد وانتشرت هذه التسلية بين أهل بغداد، وكان يلعبون بها على رقعة مربعة حمراء من أدم، والرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان، ورمى بالنشاب، ولعب بالاكرة والطبطاب وقرب إليه الحذاق فى ذلك، وقرب إليه هواة الشطرنج والنرد وأجرى عليهم الرزق، فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها خصبها أيام العروس[١].

ويذكر المسعودى[٢] أن الخليفة المأمون كان من هواة لعب الشطرنج وقد وجه اللوم إلى الذين يلعبون معه، لأنهم كانوا يتوقرون بين يديه، وقال لهم: إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة.

كذلك انتشر لعب النرد فى بغداد، ويلعب على رقعة بها أثنى عشر أو أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجر أو فصين. وشبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها، ومنازل الرقعة وهى أربعة وعشرون بساعات الليل والنهار، وحجارتها وهى ثلاثون بعدد أيام الشهر، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل[٣].

كان سباق الليل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى بغداد فى العصر العباسى الأول. وبلغ من شغفهم به وتقديرهم له أن للسابق كان يأخذ حصان المسبوق، واشترط الفقهاء فى هذه الرياضة التى أباحوها ألا تلعب طلباً للمال. وتنافس هواة سباق الخيل بتربية خيل السباحة. وجدير بالذكر أن الرشيد كان يسابق بالخيل فجاءه فرس يقال له المشمر سابقاً، والرشيد أعجبه ذلك الفرس، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه شعراً، فقال أبو العتاهية[٤]:

جاء المشمر والأفراس يقدمها ـ هونًا على رسله منها وما انبهرا.

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٥.
(٢) مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٦.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٢٥٣.
(٤) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص٣١٢.

ومن وسائل التسلية للصيد. وكان الخليفة المهدى شغوفاً بالصيد ومطاردة الظباء، وكان يقوم برحلات منظمة لهذا الغرض، يصحبه فرسان يتقلدون السيوف، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان ويسير الخليفة محاذياً لنهر دجلة ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيور، وتجذب إليها الغزلان، وقد عنى غيره من الخلفاء والأمراء بالصيد حتى أنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب كما عنوا باستخدام الصقر وغيره فى الصيد، وحرصوا كذلك على تربية الكلاب السريعة العدو[1] وكان الأمين يصارع الأسود ويخرج إلى الصيد ومعه أصحاب اللبابيد والحراب على البغال، وهم الذين كانوا يصطادون السباع.

ووجد المتمسكون بتعاليم الدين والمعادين لمجالس اللهو والطرب فى الإمام أحمد بن حنبل ضالتهم المنشودة، فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه، ومن هنا ظهرت فى بغداد طائفة الحنابله التى اشتدت وطاتها على الناس، فكروا آلات الموسيقى، وضيقوا الخناق على أهل الطرب واللهوا والعابثين والخارجين على الدين وتجولوا فى شوارع بغداد يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر.

(حـ) المرأة فى بغداد وأثرها فى المجتمع

شاع الحجاب بين نساء بغداد الحرائر ومع ذلك لم ينعزلن عن الحياة العامة، بل شاركن فى أمورها بنصيب كبير. على أن الجوارى كان لهن نشاط ملموس فى الحياة الإجتماعية أكثر من الحرائر، ذلك أن الناس حرصوا على حجاب الحرائر، أما الجوارى فكان الحجاب لا يفرض عليهن ما لم يتجبن، وقد يتزوج الرجل والمرأة الحرة دون أن يراها، وإذا أراد الرجل أن يستمع إلى الغناء أو يلهو يذهب إلى بيوت تجار الرقيق حيث القيان يقيمن بالغناء له دون حرج.

لذلك كان من الطبيعى أن يلقن الأدباء والشعراء أدبهن وشعرهم للجوارى دون الحرائر. فلا عزو أن يحرص الرجال على تعليم الجوارى أكثر من حرصهم على تعليم الحرائر[2].

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٢٤٦.
(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص٩٨.

وأدى اهتمام رجال بغداد بالجوارى إلى ظهور تنافس بين الحرائر والجوارى، فكانت أم موسى الحميرية ـ زوجة المنصور ـ اشترطت عليه ألا يتخذ سرية، وكتبت عليه بذلك كتابًا أكدت عليه فيه رغبتها هذه، وأشهدت عليه الشهود والثقات المعتدلين.

على أن الحجاب الذى فرض على المرأة الحرة فى بغداد لم يمنعها من ممارسة النشاط فى الحياة العامة، فكانت ابنة الخليفة المهدى تسير راكبة بين يديه على هيئة الجند[1].

ومن أبرز سيدات بغداد فى العصر الذى نكتب عنه الخيزران زوجة الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد، فقد أتيحت لها الفرصة لإظهار موهبها وفرض إرادتها[1].

زاد نفوذ الخيزران فى بغداد، وتدخلت فى أمور الدولة السياسية وشؤون الحكم، وحرص المهدى على رفع مستواها الاجتماعى، فأمرها بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس، لتقتبس من آدابها، وتأخذ من أخلاقها فهى على حد قول المهدى «عجوز لنا قد أدركت أوائلنا»[2] والواقع أنها كانت جليلة القدر مثقفة واسعة الإطلاع.

وكان الهادى كثير الطاعة لأمه الخيزران مجيب لها فيما تسأل عن حوائج الناس، ومواكب ذوى الحاجات لا تخلو من بابها. على أن تدخلها فى شؤون الدولة واستبدادها بالأمر والنهى ـ كما كان حالها أيام المهدى أغضب الهادى، فنهاها بقوله: «إنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك» وأمرها بألا تستمع لذوى الحاجات، وألا تأذن لأحد برفع مطلبه إليها، ونصحها بالتفرغ للصلاة والتسبيح[3].

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٦٩هـ.
John Glubb: The Empire of the Arabs. p. 265.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٢٤٨.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٧٠هـ.

على أن الخيزران لم تستجب لمطلب ابنها الهادى، فاستمرت فى مزاولة نشاطها فى الحياة العامة، فلما اعتزم الهادى خلع أخيه هارون من ولاية العهد ومبايعة أبنه بدلاً منه، تصدت له الخيزران، وانضم إليها يحيى بن خالد بن برمك فى دحض محاولة الهادى[1].

ظل نفوذ الخيزران فى عهد الرشيد على ما كان عليه فى عهد أخيه الهادى وأبيه المهدى. فكان يحيى بن خالد بن برمك ـ وزير الرشيد ـ ويأخذ برأيها وتوفيت فى عهد الرشيد، وقدرت ثروتها يوم وفاتها بمائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم، ووجد فى منزلها من ثياب الوشى ١٨ ألف[2].

ومن ذلك نرى أن الخليفة المهدى قد أتاح للمرأة فرصة إظهار مواهبها، ولم يعزلها عن الحياة العامة، ولا أدل على ذلك من أن أبنته عليه ذاعت شهرتها على اعتبار أنها من أرباب الفنون الرفيعة، وزاد فى شهرتها ولعها بالشعر والغناء والأدب، وبلغت فى الغناء درجةٍ كبيرة من الاتقان، بل وضعت ألحانًا قيمه، وكانت واسعة الاطلاع، ومن أحسن النساء وأظرفهن ومما شجعها على الغناء إقبال أخيها إبراهيم بن المهدى وأخته وتوفيت سنة ٢١٠هـ. وبلغ من تفوقها الأدبى أنها كانت تراسل بالشعر[3]. واشتغال هذه السيدة بالغناء دليل على أن المرأة كانت تتاح لها الفرصة لإبراز مواهبها الأدبية والفنية.

ومن أشهر نساء بغداد فى العصر العباسى الأول السيدة زبيده أم جعفر ـ زوجة الرشيد ـ ساهمت مع زوجها مساهمة كبيرة فى إصلاح أحوال البلاد وتخفيف أعباء الحياة عن الأهلين، ومن أفضالها أنها سقت أهل مكة المكرمة الماء، بعد أن كانت القربة من الماء عندهم بدينار، فأسالت الماء عشرة أميال من المرتفعات القريبة من مكة حتى نقلته من الحل إلى الحرام، وكان لها بجوار الكعبة دار عرفت بأسمها، وقامت بإصلاحات جليلة فى المدينة المنورة، ومهدت طريق الحج

(١) الأغانى جـ٨ ص٢٣٤.
(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٥٦٧.
(٣) الأصفهانى: الأغانى جـ١٠ ص١٦٢.

بين بغداد ومكة، وأقامت البرك والأبار والمنازل، ولولا أصلاحاتها الجليلة لتعذر المسير في هذا الطريق[١].

وعرف عنها الخير والفضل على أهل العلم والبر بالفقراء والمساكين وحرصت على تربية أولادها وجواريها تربية دينية، فكان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشر القرآن، ويسمع فى قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن[٢].

لعبت السيده زبيده أم جعفر دوراً كبيراً فى تطور الحياة السياسية فى بغداد فيذكر المسعودى[٣] أنها مازالت بالرشيد حتى أقنعته بأخذ البيعة لابنها الأمين قبل المأمون على الرغم من أن المأمون أكبر سنا من الأمين، فوافق الرشيد وهو يعلم أن المأمون أكثر كفاءة من المأمون، بدليل أن الرشيد قال لها: ليس أبنك أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعايا[٤].

ولما ولى الأمين الخلافة، ونشبت الفتنة بينه وبين أخيه المأمون شجعت السيدة زبيده أم جعفر قواد بغداد على الدفاع عن الحاضرة الإسلامية الكبرى، وقهر المأمون، فدفعت إلى على بن عيسى بن ماهان ـ قائد جيش الأمين ـ يقيد، وطلبت منه أن يقيد المأمون به، ولكن لا يعنف عليه فى السير حتى ولو أساء إليه[٥].

وكانت تحيا حياة مترفه فى قصرها المنيف، وتمتلك ثروة ضخمة، وهى أول من اتخذ الآله من الذهب والفضه المكللة بالجوهر وصنعت لها ثياب من الوشى بلغ ثمن الثوب منه خمسين ألف دينار، واتخذت الخدم والجوارى يذهبون على الدواب في حوائجها، وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٦.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص٧٠.
(٣) مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٨.
(٤) ابن قتيبه: الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٢٤.
(٥) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٨.

واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر واتخذت شمع العنبر، وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بها[1].

ولما قتل الأمين وولى المأمون الخلافة تتضاءل نفوذ أم جعفر لأن المأمون لم يغفر موقفها منه فى ولاية العهد، فى الفتنة التى حدثت بينه وبين أخيه الأمين، وظلت مقيدة الحركة حتى تزوج المأمون من بوران، وكان لا يرد لها طلبا، فسألته العفو عن إبراهيم بن المهدى والاذن للسيدة زبيده أم جعفر بالحج. فوافق على ذلك[2].

ولم تكن السيده بوران وحدها صاحبة النفوذ فى عهد المأمون بل كانت السيده زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ـ التى سبقت الإشارة إليها ـ فتمتع بنفوذ كبير، وكان بنو العباس يعظمونها وإليها ينسب الزبنييون ولا أدل على قوة تأثيرها من أن بنى العباس طلبوا منها أن تطلب من المأمون ترك لباس الخضرة، والعودة إلى لبس السواد ـ شعار العباسيين ـ فقالت له: يا أمير المؤمنين ما الذى دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت على. قال: يا عمه إنى رأيت عليا حين ولى الخلافة أحسن إلى بنى العباس، فولى عبد الله البصره وعبيد الله اليمن. وما رأيت أحداً من أهل بيتى حين أفضى الأمر إليهم كافأوه على فعله فى ولده، فأحببت أن أكافئه على إحسانه، ثم سألته تغيير لباس الخضرة. فأجاب إلى ذلك، وأمر الناس بتغييره، والعودة إلى لباس السواد[3].

وكانت عائشة بنت الرشيد من أفضل نساء عصرها تشجع الشعراء والأدباء، وتجزل الصلاة لهم، وكذلك عاليه بنت الرشيد كانت من الشعراء ومن ربات الرأى، وعرف عنها الحزم، لذلك كان أبوها يعتمد عليها فى مهام أموره، ونفضى إليها بأسراره[4].

أما العباسية بنت المهدى فكانت سيدة أدبية فاضلة. وكان الرشيد يشركها فى

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ٥٥٦.
(٢) ابن الساعى: نساء الخلفاء ص٧٠.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٠٠.
(٤)عمر كحالة: أعلام النساء جـ٣ ص١٣٣..

مجالسه مع وزيره جعفر بن يحيى البرمكى حينما ينظر فى الأمور الهامة لأنه، يأنس برأيها، ويطمئن إليها[1].

ومن أسباب غزو المعتصم لعموريه أن الإمبراطور البيزنطى تيوفيل هاجم زبطره ونهبها، وقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وقيل إنه كان فى جملة السبى امرأة فسمعت وهى تقول: وامعتصماه فبلغ المعتصم ما فعله إمبراطور الروم، فكبر عليه ذلك وأنكره، وبلغته ما قالته الهاشمية، فقال وهو مجلسه: لبيك لبيك، ونهض من ساعته، وصاح فى قصره: الرحيل الرحيل، وسار على رأس جيش كبير وهاجم عمورية، ودمرها تدميراً[2].

د. الأخـــلاق والعـــادات

عرفنا أن العناصر الرئيسية فى بغداد كانت العرب والفرس والترك ويغلب على كل عنصر من هذه العناصر عادات وصفات معينة ميزتهم عن غيرهم، فكان العرب يميلون إلى البداوة، ويتعصبون لبنى جنسهم وهم سريع التأثر بالحضارة، فإذا تحضروا انغمسوا فى البذخ والترف. أما الفرس فقد ورثوا مدنية قديمة. فعملوا على نقلها، ولهم مقدرة إدارية كبيرة ومهارة فى إدارة الشؤون الأقتصادية وتنمية موارد الثروة، وعنوا عناية شديدة بالحياة الثقافية، فقاموا بدور كبير فى رواج الحياة العلمية فى بغداد، لكنهم كانوا يميلون إلى إظهار نحلهم القديمة، والانتقام من العرب لما لحقهم منهم من سوء معاملة فى العهد الأموى، وكانوا يميلون إلى التشيع: على أن الترك خالفوا الفرس فى الأهتمام بالحياة الثقافية بل كانوا أشبه بالبدو لأنهم لم يكونوا أهل مدينة وحضارة، وقد أكسبتهم البداوة قوة فى البدن وخشونة فى الطبع والإعتداد بقوة الجسم وعرف الشجاعة وحب الفروسية[3]، ويسميهم الجاحظ أعراب العجم.

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٩٠.

(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢١٠.

John Glubb: The Empire of the Arabs. p. 265.

(٣) محمد جمال الدين سرور ـ تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٩٢.

غلبت على أهل بغداد صفات الخلفاء، والناس كما يقولون على دين ملوكهم، فالمنصور أول خليفة قرب المنجمين، وعمل بأحكام النجوم، وقد نظر فى العلم، وقرأ المذاهب، وارتاض فى الآراء ووقف على النحل، وكتب الحديث، فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم[١]

وكان المهدى سمحاً كريماً جواداً، فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه، حتى كان لا يسؤل أحد فى أيامه إلا وأعطى، أما الهادى فأول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف والقسى، فسلك عماله طريقته، وكثر السلاح فى عصره[٢].

وكان الرشيد مواظباً على الحج متابعاً للغزو، واتخاذ القصور وتمهيد الطرق فى طريق مكة فعم الناس إحسانه مع ما اقترن به من عدله وأقتدت به رعيته فظهر الحق وخفق الباطل[٣].

أما المأمون فكان أكثر الناس عفواً وأشدهم احتمالاً وأحسنهم مقدرة، وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم بالعطايا، واتبعه وزراؤه وأصحابه فى فعله، وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه[٤]، على أن المعتصم غلب عليه حب الفرسية والتشبه بالملوك الأعاجم فى ملبسه ومظهره، فاقتدى بفعله الناس، وعم الناس أفضاله، وأمنت السبل فى أيامه، وشمل الناس إحسانه[٥].

ظهرت نزعة فى بغداد تدعوا إلى الزهد، وذلك أن بعض الناس بئسوا من الثراء وعفت نفوسهم عن التزلف والتقرب للأغنياء، أو لم تمكنهم ظروفهم من ذلك، وقوم خلصت نواياهم نحو الله واتجهوا إليه بكل ما استطاعوا، وصفت نفوسهم، ورأوا أن النفس إذا نالت ما أرادت انقادت إلى المعاصى ففضلوا التغلب

(١) المسعودى ـ مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٤.
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٥٥٥.
(٣) المسعودى ـ مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٥.
(٤) المصدر السابق جـ٥٥٦.
(٥) المصدر السابق ص٥٥٧.

عليها، وقوم لجأوا إلى الزهد بعد أن فشلوا فى الحصول على المال والحياة وكثيراً زهدوا تقرباً إلى الله لأن الزهد يعصمهم من الوقوع فى المعاصى حتى قال محمد بن واسع: يعجبنى أن يصبح الرجل، وليس له عشاء وهو مع ذلك راض عن الله، صرفوا نفوسهم عن الشهوات وأكثروا من ذكر الموت والحياة الأخرة. وتعففوا عن محاولة طلب من ذويه، وقنعوا بالقليل[1]، وكان الشاعر أبو العتاهية يمثل طلب المال الزهد فى بغداد، وظهر ذلك جلياً فى أشعاره، كقوله:

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس إذا تسترت بالأبواب والحرس

وعم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس[2]

نرجو النجاة ولم تسلك طريقتها إن السفينة لا تجرى على اليبس

ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، وأذكر ليلة تبيت فى القبر لم تبت قبلها ليلة. فأفحم المنصور قوله وأمر له بمال، فرفض الزاهد صلة الخليفة، وقال زاهد آخر للمنصور: إن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة.

وكان صالح بن بشير المرى أحد العباد الزهاد جلس إلى المهدى فوعظه حتى أبكاه، ثم قال له: إعلم أن رسول الله خصم من خالفه فى أمته ومن كان محمد خصمه فالله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسول حججاً تضمن لك النجاة، وإلا فاستسلم للمهلكة، وأعلم أن الله قاهر فوق عباده، وأن أثبت الناس قدما، آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله[3].

والإمام أحمد بن حنبل خير من مثل نزعة الزهد فى بغداد فكانت غلته من ملك له فى كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله، ويقنع بذلك صابراً

(١) الأصفهانى: كتاب الأغانى جـ٤ ص١٠٦.
(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ١٠ ص١٢٤.
(٣) المصدر السابق جـ١٠ ص١٧١.

محتسباً، ولم يزل كذلك حتى ولى المتوكل الخلافة، فأرسل إليه عشرة آلاف درهم نفقة له، ففرقها الإمام أحمد على المحتاجين من أهل الحديث، وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، حتى لم يبق منها درهما[1].

وروى عن الرشيد أنه طلب من الزاهد ابن السماك أن يعظه، فقال له: أعلم أنك واقف بين يدى الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار، فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته[2].

وقالوا عن الزاهد من لم يغلب الحرام صبره ولا الحلال شكره[3].

وقال بعض الزهاد: يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، وإذا ما رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم فى الشر فابتعد عنهم[4].

ولم يقتصر الزهد علي أفراد الشعب بل تعداه إلى بعض أمراء البيت العباسى، فكان أحمد بن هارون الرشيد أميراً صالحاً، ترك الدنيا فى حياة أبيه مع القدرة، ولم يتعلق بشئ من أمورها، وأبوه خليفة الدنيا وآثر الأنقطاع والعزلة بل كان يتكسب من عمل يده بعمل يؤديه يوم السبت من كل أسبوع، وينفق ما اكتسب فى احتياجاته بقية الأسبوع، ويتفرغ للاشتغال بالعبادة وتوفى سنة ١٨٤هـ[5].

وفى مقابل نزعة الزهد ظهرت نزعة أخرى فى بغداد تدعو إلى اللهو والمجون، انغمس فيها المترفون من أهل بغداد، وكان يمثل هذه النزعة بشار وأبو نواس. على أن الفترة التى قام فيها الأمين لم ينعم الناس فيها بالحياة الآمنة بسبب الفتنة وحصار بغداد وأعمال التخريب والتدمير التى نجمت عن ذلك، لذا حاول أهل المجون تعويض ما أصاب الحياة من بؤس وشقاء بعد تولية المأمون الخلافة، واستقرار الدولة.

(١) المصدر السابق جـ١٠ ص٣٣٨.
(٢) الطبرى. تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٣هـ.
(٣) الجاحظ. البيان والتبيين جـ٣ ص١٥٤.
(٤) المصدر السابق جـ٣ ص١٣٢.
(٥) ابن كثير. البداية والنهاية جـ١ ص١٨٤.

كان التنجيم شائعاً فى بغداد فى العصر العباسى الأول، حتى أن الخليفة المنصور استشار المنجمين بشأن مشروعه فى تأسيس مدينة بغداد، فبشروه بعمرانها وطول بقائها، وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم[١].

ويلغ من اعتقاد الخليفة المنصور بالتنجيم أن توبخت ـ منجم المنصور ـ بشر المنصور أثناء الحرب بينه وبين إبراهيم بن الحسن العلوى. بأن إبراهيم يقتل، وتصادف وقوع هذا الحدث، فأقطع المنصور منجمه ألفى جريب، ويذكر صاحب كتاب البداية والنهاية أن هذا المنجم إن كان قد أصاب فى قضية واحدة فقط أخطأ فى أشياء كثيرة. وقد كان المنصور فى ضلال مع منجمه هذا، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين، وذلك ضلال لا يجوز[٢].

وكان يحيى بن خالد البرمكى من أعلم الناس بالنجوم[٣]، ولما خص الفضل ابن سهل بالمأمون، وتبين نجابته ودلته النجوم ـ طبقا لما ذكره الجهشيارى[٤] ـ على أنه يلى الخلافة استوزر الفضل بن سهل، وفوضه أمور دولته حتى غلب عليه[٥].

وكانت احتفالات الزواج فى بغداد تتم فى شئ كثير من الأبهة والعظمة فحينما تزوج الرشيد من السيدة زبيدة أعد لها صناديق الجوهر والحلى والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة، وأعطاها ثوباً منقطع النظير فى الفخامة، وفى صدرها وظهرها قصان ياقوت أحمر وباقيها من الدر الكبار الذى ليس مثله، ودخل الرشيد بها فى قصره المعروف بالخلد سنة ١٦٥هـ، وأتاه الناس من الآفاق لتهنئته، وفرق فيهم من الأموال شيئًا عظيمًا، فكانت الدنانير تحمل فى كؤوس فضة والدراهم فى كؤوس ذهب، والمسلك والعنبر فى أوعية

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٤.
(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٩.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٩٤.
(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص٢٤٩.
(٥) الوزراء والكتاب ص٢٧٩.
(٦) المصدر السابق ص٢٨٠.

زجاج. ويفرق ذلك على الناس، ويخلع عليهم خلع الوشى المنسوجة، وأوقد بين يديه فى تلك الليلة شمع العنبر، وأحضر نساء بنى هاشم، فكان يؤدى إلى كل واحدة منهن كيس فيه دنانير وكيس فيه دراهم وصينية كبيرة فضة فيها طيب، ويخلع عليها خلع وشى، وبلغت النفقة فى هذا العرس خمسين ألف ألف درهم[1].

ولما دخل المأمون ببوران أمهرها بمائة ألف دينار وخمسة آلاف ألف درهم، وفى احتفال العرس نثرت عليها جدتها ألف درة فى صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، فجمعها فى الطبق، ووضعها فى حجر بوران ولبى جميع طلباتها، وألبستها السيدة زبيدة قميصاً مرصعاً باللؤلؤ[2]، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون فى إناء ذهب، وأقام المأمون عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعد الحسن له فى كل يوم ولخاصته ما يحتاجون إليه، وخلع الحسن على القواد على مراتبهم، ووصلهم وكانت النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم وأمر المأمون بعد انصرافه أن يدفع للحسن عشرة آلاف دينار من مال فارس، وأقطعه الصلح، ففرق الحسن الأموال على قواده وأصحابه وخدمه وحشمه، ولما انحدر المأمون ناحية واسط فرش له حصير من ذهب، ونثر عليه جوهر كثير، فجعل بياض الدريشرق على صفوة الذهب، ولم يسسمه أحد، فوجه الحسن إلى المأمون هذا النثار. فدعا المأمون من حوله من بنات الخلفاء إلى أخذ هذا النثار، فأخذت كل واحدة منهن درة، وبقى من بقى من الدر على الحصير الذهب[3]. ونثر الحسن فى ذلك من الأموال ـ كما يقول المسعودى [4]ـ ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا إسلام. وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار، فكانت البندقة إذا

(١) الشايستى: الديارات ص١٠٠.

(٢) ابن طيفور: مناقب بغداد ص١٠٢.

(٣) ابن الساعى: لسان الخلفاء ص٦٧ - ٧٠.

(٤) مروج الذهب: جـ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

وقعت فى يد الرجل فتحها فقر أما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك، فيقال له ضيعة يقال لها فلانة فى ناحية كذا وجارية يقا لها فلانة، ودابة صفتها كذا، ثم نثر بعد ذفك على الناس الدنانير والدراهم وبعض العنبر. وعاد المأمون إلى بغداد وأقام مع زوجته فى القصر الحسنى الذى كان لأبيها[1].

* * *

كان لباس العباسيين منذ قيام دولتهم اللون الأسود، فلما ولى المأمون الخلافة. أمر الناس بلبس اللون الأخضر ولم يكن أحد يدخل عليه إلا فى الخضرة، علي أن بنى هاشم عارضوا هذا العمل، وقالوا له: يا أمير المؤمنين: تركت لباس أهل بيتك ودولتهم. ولبست الخضرة، وتكلم فى ذلك نواد أهل خراسان والناس جميعا. فاستجاب المأمون لهذه النداءات، ودعا بخلعة سوداء ولبسها، وكساها لطاهر بن الحسين، وخلع على عدد من قواده أقبية وقلانس سوداء، فلما خرجوا من عنده مرتدين السواد، طرح سائر القواد الخضرة ولبسوا السواد[2].

كان المنصور يأمر أهل بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشى والطيب، فإن رأى أحداً لا يلتزم بذلك عاتبه، وكان يشدد عليهم بضرورة الإكثار من الطيب[3] وشابه المهدى أباه فى الحرص على حسن مظهر رجاله حتى أن سلم كان يأتى بابه على برذون قيمته عشرة آلاف درهم والسرج واللجام المزينين وعليه لباس الخز والوشى ورائحة المسك العالية والطيب تفوح منه، ويجئ مروان بن أبى حفصة - من رواد المهدى - إليه وعليه فروكبش وقميص صوف وعمامة صوف وكساء غليظ[4].

(١) ابن طيفور: مناقب بغداد ص,١٠٢

(٢) المصدر السابق ص,١٠

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨هـ

(٤) الأصفهانى ـ كتاب الأغانى جـ١٠ ص,٧٠

ودخل العمانى الراجز على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويله ولباس بسيط، فقال الرشيد: إياك أن تشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور، ويخفان مستديران أملسان[١].

وفى سنة ١٤٩هـ أخذ المنصور الناس بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول كما أدخل الملابس المحلاة بالذهب، وغداً خلعها على الناس من حق الخليفة، وكان اللباس العادى للطبقة الراقية يشتمل على سروال فضفاض وقميص ودراعة وستر وقفصان وقباء وقلنسوة، أما لباس العامة فيشمل على إزار وقميص ودراعة وستر طويلة وحزام وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة، ومفتوح عند الرقبة بحيث يظهر القفصان زاهياً من تحته، وأكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم حيث جعلها فضفاضة ويتمنطق الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتخذ عباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة عالية[٢].

وكان الكتاب يلبسون الدراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر، ويابس القواد الأقبية الفارسية القصيرة، والرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحريرى أو الصوف أو الجلد، وكان ثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة، فالعمائم التى حرصوا على اتخاذها اختلفت تبعاً للسن والمراكز الاجتماعى والعلمى، وقد حافظ العرب على لبس العمائم، وكانوا يقولون: مازالت العرب عرباً ما لست العمائم وتقلدت السيوف[٣]. ويقول الجاحظ[٤]: وللخلفاء عمه والفقهاء وللأبناء عمه وللنصارى عمه ولأهل التشاجى عمه وللصوص عمه...

(١) الجاحظ- البيان والتبيين جـ١ ص,٩٥
(٢) سيد أمير على ـ مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ - ,٣٨٩
(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين حـ٣ ص,٦٠
(٤) البيان والتبيين حـ٣ ص,٦١

اتخذت الخلفاء ومن يلوذ بهم وكبار رجال الدولة فى بغداد على ملابسهم، ويشمل اسم الخليفة، وبقصر الخلافة يقوم دار الطراز بهذه المهمة[١]..

وكان لباس المرأة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوف عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى الشتاء، واتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء الرأس مرصعاً بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة[٢] وكان السيدة زبيدة لها تأثير كبير فى تطور الزى وإدخال تيسيرات على ملابس السيدات فى عصرها، فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر، ولقد اتخذت ثوباً من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار[٣].

كما أن سيدات الطبقة المتوسطة لم يجهلن فن التجميل، فكن يتخذن اللؤلؤ والزمرد على عصائبهن، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن[٤].

وجدير بالذكر أن الناس فى بغداد كانوا يلبسوا الملابس البيضاء عند العزاء.

حرص الخلفاء على تعليم أبنائهم مكارم الأخلاق، ويتضح ذلك مما ذكره الرشيد لمؤدب ولده، إذ يقول: امنعه الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلو إليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تقيده إياها من غير أن تخزق به فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة[٤].

وقد قال المنصور لابنه المهدى: إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هودونه..

استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٠-,٢١١
(٢) سيد أمير على ـ مختصر تاريخ العرب ص ,٣٩٠
(٣) المدور ـ حضارة الإسلام فى دار السلام ص ,٥٥
(٤) المسعودى ـ مروج الذهب ,٢٧٨